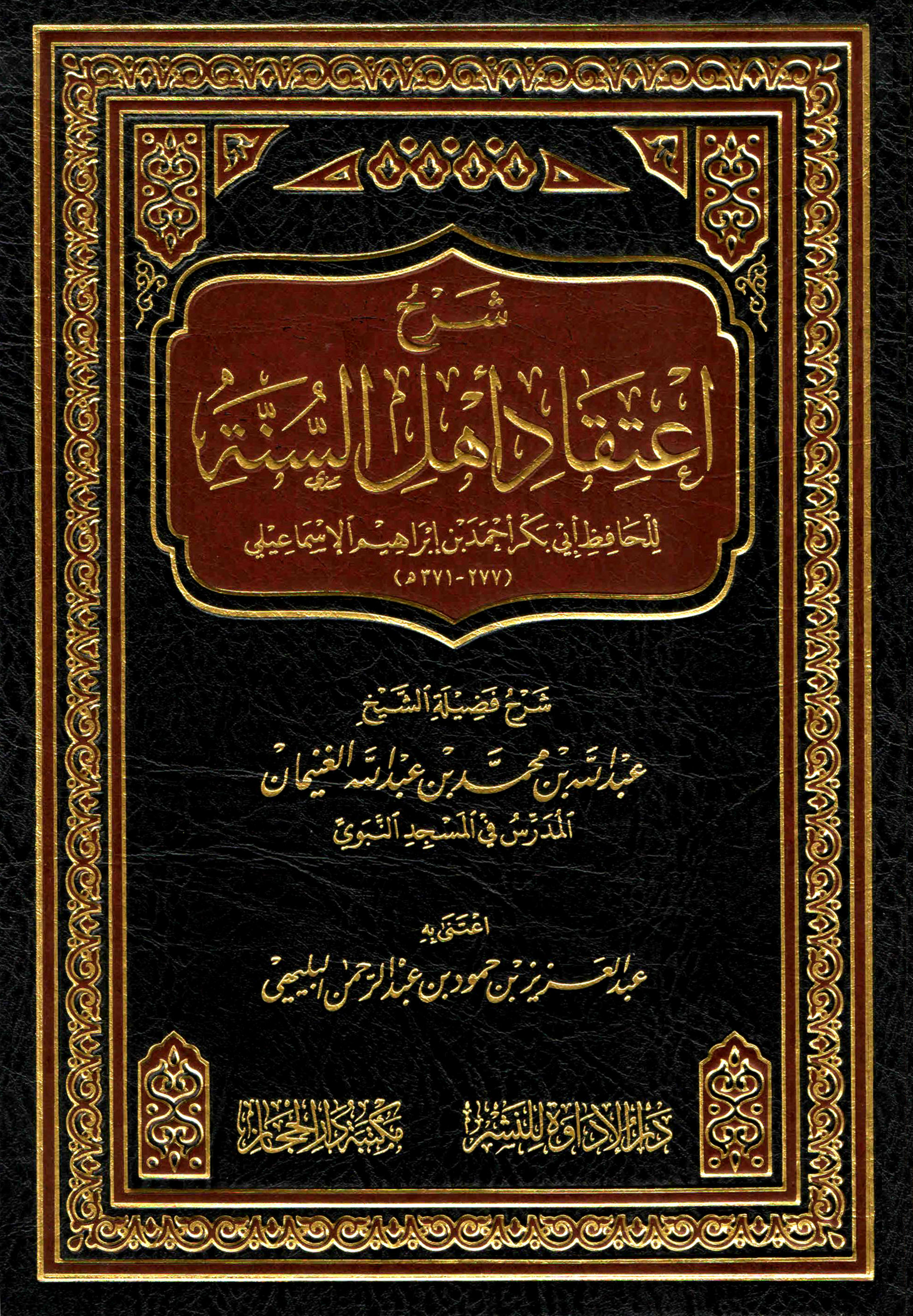
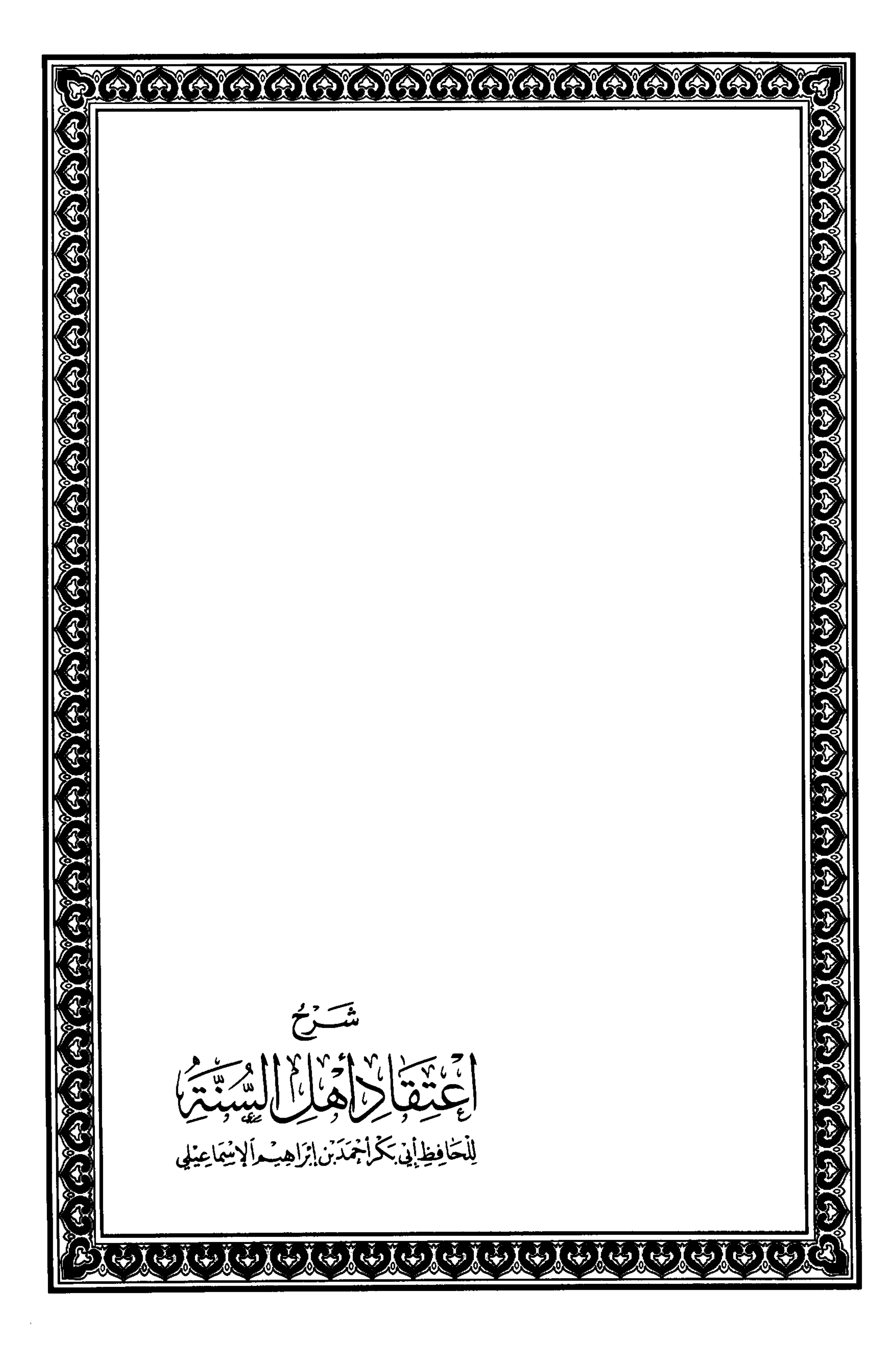


شرح
اعتقاد أهل السنة
للحافظ أبي بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي
(٢٧٧-٣٧١ هـ)
شرح فضيلة الشيخ
عبد الله بن محمد بن عبد الله الغنيمان
المدرس في المسجد النبوي
اعتنى به
عبد العزيز بن حمود بن عبد الرحمن البليهي
دار الأداوة للنشر
مكتبة دار الحجاز



شرح

اعتقاد أهل السنة

للحافظ أبي بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الغنيمان، عبدالله بن محمد بن عبدالله

شرح اعتقاد أهل السنة للإسماعيلي . / عبدالله بن محمد بن عبدالله الغنيمان – الرياض، ١٤٤٣هـ

٢٠٨ص ، ١٧ x ٢٤ سم

ردمك ٨-٩٣٩٧-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- العقيدة الإسلامية أ- العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٤٣/٢٦٥٩

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٢٦٥٩
ردمك: ٨-٩٣٩٧-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢م



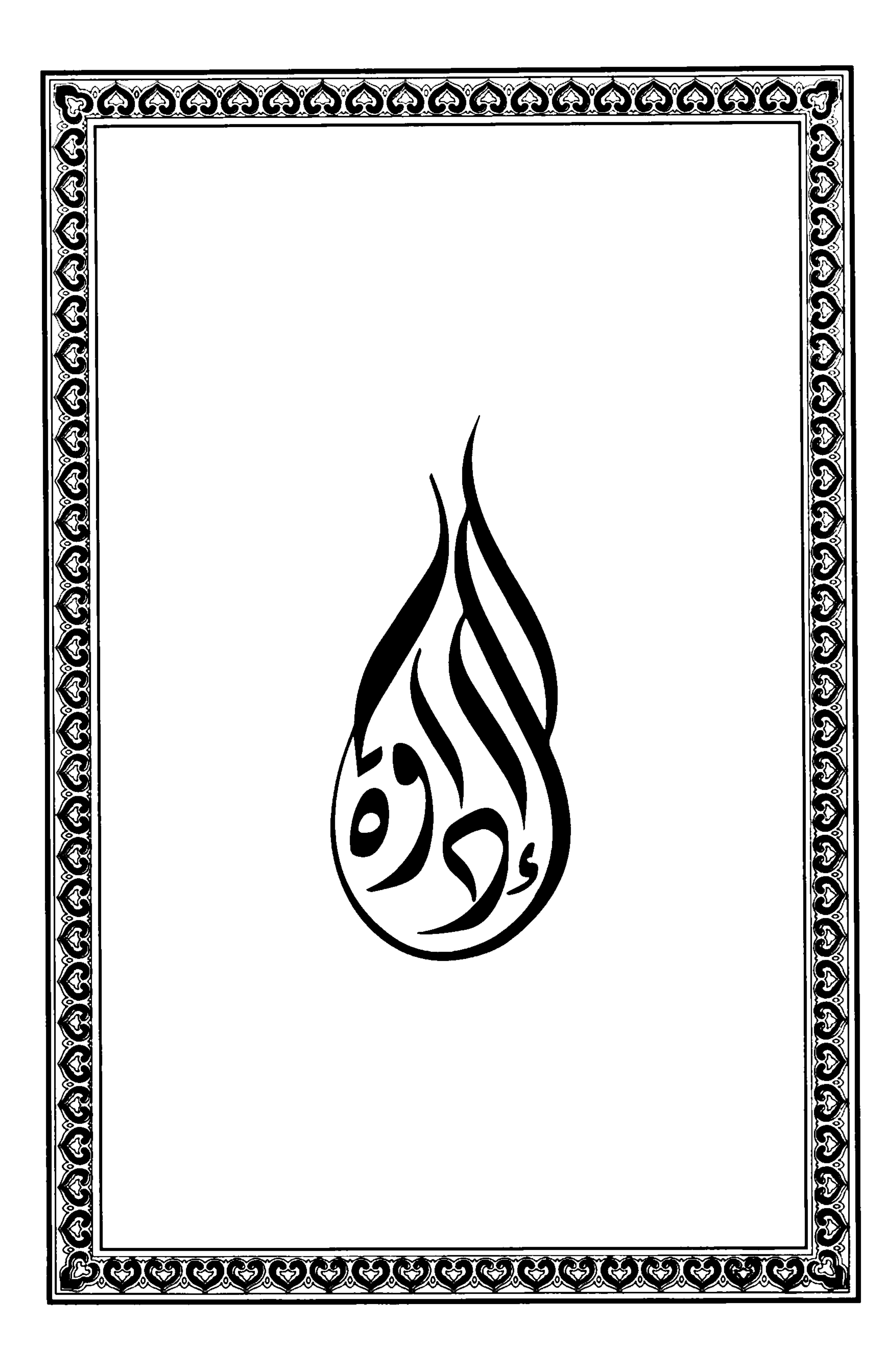
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ـ الرياض ـ شارع السويدي العام ـ شرق النفق
الإدارة والمبيعات جوال ـ ٠٠٩٦٦٥٦٧٣٣٢٤١٧ـ ٠٠٩٦٦٥٦٥٦١١٥٠٠٥٨ـ ٠٠٢٠١١١٦٨٩٩١٠٠ـ ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣
الإسكندرية ـ ١٧٥ ش طيبة سبورتنج بجوار مسجد القديس هاتف: ٠٣/٥٤٦١٥٨٣ ـ جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥١
القاهرة ـ ٦ ش الدراسة متفرع من ش البطار ـ خلف الجامع الأزهر الشريف ـ هاتف: ٠٢/٢٥١٠٧٤٧٢
جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥٠ ـ ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ ـ فاكس: ٠٣٤٣٨١٥٠٩
البريد الإلكتروني: d.alhijaz@gmail.com





00966540040650
@ALEDAWAH
ALEDAWAH@GMAIL.COM
الرياض - حي الشفا - شارع ابن طولون


الإهداء

مُقَدِّمةُ المُعتَني

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فهذا شرح لكتاب «**اعتقاد أهل السنة**» للحافظ أبي بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو عبارة عن دروس علمية ألقاها فضيلة شيخنا عبدالله بن محمد الغُنَيمان -حفظه الله- في بعض الدورات العلمية، فأفاد فيه وأجاد -جزاه الله خيرًا ونفع به-، فُرِّغت وجُمِعت ورُوجِعَت، وعُزِيَت الآيات، وخُرِّجت الأحاديث، وعُزِيَت الأقوال، وغير ذلك، فلله الحمد والمنَّة.

والشكر أولًا وآخرًا لله ربي، كما أشكر كل من ساعدني في ذلك، وأخصُّ منهم الإخوةَ في مكتب الشيخ بالمدينة النبوية[1]، أسأل الله أن يجزيهم عني خير الجزاء.

هذا، ونسأل اللهَ العليَّ القدير أن يغفرَ للإمام الإسماعيلي، ويتغمَّدَه بواسع رحمته، كما نسأله جَلَّ وَعَلَا أن يجزيَ شيخنا خير الجزاء، وأن يبارك له في عمره وعلمه وعمله، ويصلح له ذريته، وأن يجعلنا وإياهم هُداةً مُهتدين؛ إنه سميعٌ قريبٌ مجيبٌ.

وإنْ تَجِـــدْ عَيبًـــا فَسُـــدَّ الخَلَـــلا ... فَجَـــلَّ مَـــنْ لا عَيـــبَ فِيـــهِ وَعَـــلا

---

(١) للتواصل: hhks1999@gmail.com

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات، وصلَّى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه:
عبد العزيز بن حمود بن عبد الرحمن البليهي
a.h.albalhe@gmail.com



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «اعلمُوا -رحمنا الله وإيَّاكم-: أنَّ مذهبَ أهلِ الحديث؛ أهلِ السُنَّة والجماعة:

الإقرارُ بالله وملائكته وكُتُبه ورُسُلِه».

الشرح:

بسم الله الرحمن الرحيم، إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يَهْدِه الله فلا مُضِلَّ له، ومن يضلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا، وبعدُ:

قوله: «اعلمُوا...». أمرٌ بالعلم، ويأتي الأمر في حالة الأهمية، أو عند وجود انحراف أو غفلة أو سهو؛ حتى يتنبهَ السامع لذلك ويهتم بالأمر، وهكذا كان الحال في وقته رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله: «أنَّ مذهبَ أهل الحديث؛ أهل السُنَّة والجماعة».

أي: أن أهل الحديث هم أهل السنة والجماعة.

والسُّنَّة هي: اتباع سُنَّة المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والاجتماعُ على الحق في ذلك، وعدم التفرُّق؛ لأن هذا أمر أوجبه الله جَلَّ وَعَلَا على عباده، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

والجماعة يلازمون السُّنَّة، ولا تكون جماعةٌ بلا سُنَّة، أما إذا كان الاجتماع على باطل فهذا لا يدوم؛ لأنه يكون على مصالحَ مُعَيَّنةٍ فتنتهي!

وقوله: «الإقرار...»: كلمة الإقرار بمنزلة الإيمان عند كثير من العلماء، بل بعضهم اختار الإقرار على الإيمان؛ لأنهم فسروا الإيمان بالتصديق، والإقرارُ يكون أوسعَ من ذلك، وأتمَّ معنًى من مجرد التصديق؛ لأن التصديق قد يكون ممَّن لا يتَّبعُ الأمرَ ويمتثِلُه.

وقوله: «**الإقرارُ بالله وملائكته وكُتبه ورُسُلِه**»، أي: أن الإقرار هو أصل أهل السُّنَّة والجماعة الذي يبنون عليه دينهم، عقيدةً وعملًا.

والإقرار بالله جَلَّوَعَلَا، أي: الإيمان بما أخبر، وبأنه جَلَّوَعَلَا هو المعبود وحده، واتباع أمره خوفًا منه ورجاءً، والإيمان بأسمائه وصفاته وبوعده ووعيده.

قوله: «**وملائكته**». الملائكة: عطف عليه؛ لأنهم من الغيب، فالله جَلَّوَعَلَا غيب لا يُبصَر ويُشاهَد، وليس له مثيل أو نظير فيُقَاسَ عليه، فلابد من اتباع قوله تعالى، وتصديق ما جاءت به الرسل؛ لهذا فُسِّرَ قولُ الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ٣]، أي: يؤمنون بالله والملائكة.

والملائكة من الغيب، فهم لا يُشاهَدون، ومعنى كلمة «الملائكة» الذين يؤدون الرِّسالة؛ لأنها مأخوذة من الألوكة وهي: الرِّسالة، فهم رُسُلٌ لله جَلَّوَعَلَا يمتثلون أمره، وعلى حسَبِ ما أمرهم الله جَلَّوَعَلَا به؛ لأن وظائفهم تختلف، وقد ذُكِر لهم في كتاب الله جَلَّوَعَلَا، وفي أحاديث رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وظائفُ كثيرةٌ عُرفوا بها، أما أسماؤهم فمن عُرفَت أسماؤهم قِلَّة.

قوله: «**وكُتبه**»: كُتُبُ الله جَلَّوَعَلَا هي التي أنزلها على رُسُله، والإيمان بها على أن فيها الهدى، فمن اتبعها فهو السعيد، ومن خالفها فهو الشقي الطريد.

قوله: «**ورُسُلِه**»: رسل الله كذلك، يجب أن نؤمن بهم جميعًا، فمن أطاعهم فإنه يسعد في الدنيا والآخرة، ومن عصاهم وترك طريقهم فهو من أهل الجحيم.

ورسل الله جَلَّوَعَلَا كثيرون.

ولكن الذين ذُكرت أسماؤهم في كتاب الله جَلَّوَعَلَا خمسٌ وعشرون نبيًّا ورسولًا، خصهم الله بالذِّكر في القرآن الكريم من بين كثرة من الأنبياء والرسل، يقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

فالإيمان بهم بأنهم جاءوا بالهدى من عند الله جَلَّوَعَلَا، وأن من أطاعهم يكون سعيدًا في الدنيا والآخرة، وسالمًا من العذاب، ومن عصاهم فهو من الكافرين الذين خُلقوا للنار -نسأل الله العافية-.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «وقبولُ ما نطق به كتابُ الله تعالى، وما صحَّت به الرِّواية عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا مَعْدِلَ عمَّا وردَ به، ولا سبيل إلى ردِّه؛ إذ كانوا مأمورين باتِّباع الكتاب والسُّنَّة، مضمونًا لهم الهدى فيهما، مشهودًا لهم بأنَّ نبيَّهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهدي إلى صراطٍ مستقيم، مُحذَّرين في مُخالفته الفتنةَ والعذابَ الأليم».

الشرح:

أي: أنه يجب أن يُقْبَل كلُّ ما جاء به الكتاب، أي: ما دل عليه ظاهرًا.

ومن المعلوم أن الدَّلالات تختلف باختلاف فُهوم الناس؛ ولهذا علَّق ذلك بالكتاب لا بالفهم، وكلُّ ما قاله الله جَلَّ وَعَلَا حقٌّ، وظاهره هو الذي أُمِرنا باتباعه والإيمان به، والباطنُ ليس له باطنٌ يخالف ذلك.

ومعنى هذا أن قول الله جَلَّ وَعَلَا هو اللفظ والمعنى، فيجب أن يُقبل لفظه ومعناه، وقد تكلم به الله جَلَّ وَعَلَا حقيقةً، وأسمعه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثم نزل به جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

تنبيه:

في بعض الإجازات التي يكتبها المقرِئون كلامًا غير صحيح، عندما يذكر السند، ثم يرفعه إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: عن جبريل، وجبريلُ أخذه عن اللوح المحفوظ!

هذا مذهب الأشاعرة، وهو باطل، فجبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أخذه عن الله

جَلَّ وَعَلَا، وليس عن اللوح المحفوظ، فيجب أن يعتقد المسلم هذا، فاللوح المحفوظ لم يتكلم وينطق بالقرآن، وإنما كتب الله جَلَّ وَعَلَا فيه كل شيء، فيجب الحذر من هؤلاء الذين يحرِّفون المعانيَ، ويُدخِلون مذاهبَهم من أبواب خفيَّة على الناس.

قوله: «وما صحَّت به الرِّواية عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

أي: أن الحديث يساوي كتاب الله جَلَّ وَعَلَا شريطة أن تكون الرواية صحيحة، فإذا صحت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه يجب قبولها والإيمان بها، وهذا ردٌّ لمذهب أهل الباطل الذين يقولون لا نقبل إلا ما كان متواترًا؛ لأن التواتر في الحديث قليل، والعجيب أنه حتى المتواتر يتحايلون في ردِّه، كما قالوا في القرآن: وإنْ تواترَ لفظُه فمعناه مظنون!.

ويرجعون الأمر إلى عقولهم وأفكارهم.

قوله: «لا مَعْدِلَ عمَّا وردَ به».

أي: أن العبد المؤمن لا يخرج عن اتباع كتاب الله جَلَّ وَعَلَا، وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا إذا ضل وزاغ.

قوله: «ولا سبيل إلى ردِّه».

لقد أمرنا الله جَلَّ وَعَلَا بهذا، فمن ردَّ وأبى خرج عن سبيل المؤمنين، فيُوَلِّيه الله ما تولى.

قوله: «إذ كانوا مأمورين باتِّباع الكتاب والسُّنَّة».

الضمير في «كانوا» لأهل السنة والجماعة، والواجب أن يكون للعموم؛ لأن الأمر جاء عامًّا وليس لأهل الحديث فقط، بل لجميع من يسمع ويعقل من الجن والإنس، فيجب أن يتَّبِعوا كتاب الله وسُنَّة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا كانوا يريدون النجاة من عذاب الله جَلَّ وَعَلَا، وما يخرج عنهما إلا الشقيُّ.

قوله: «مضمونًا لهم الهدى فيهما».

جاء في صيغة المجهول، والأمر ظاهر؛ فالضمان جاء من الله جَلَّ وَعَلَا، فقد ضَمِن لهم أن من اتَّبع كتابه ورسوله وأطاعه فهو من المهتدين، يقول الله جَلَّ وَعَلَا فيمن يطيع الله ورسوله: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وهذا الضمان هو خبر الله الذي أخبر به، وكذلك قوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقوله: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣].

قوله: «مشهودًا لهم بأنَّ نبيَّهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهدي إلى صراطٍ مستقيم».

أي: أن الذي شهد به هو ربنا جَلَّ وَعَلَا، في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ﴾ [الشورى: ٥٢ - ٥٣].

وتنقسم الهداية إلى قسمين:

القسم الأول: هداية القلوب؛ بمعنى خَلْق الهدى فيها، وجَعْلها مُحِبَّةً للحق مريدةً له.

وهذه الهداية خاصة بالله جَلَّ وَعَلَا، وهي التي نفيت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

القسم الثاني: هداية دَلالة وإرشاد.

وهي كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣]، وهذه الهداية للرسل ولأتباعهم أيضًا حسَبما أعطاهم الله جَلَّوَعَلَا من العلم والبيان، فيجب عليهم أن يبيّنوا ذلك إذا احتيج إليهم.

قوله: «مُحذّرين في مُخالفته الفتنةَ والعذابَ الأليم».

أي: مخالفة الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وهو يشير بهذا إلى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وقد قال الإمام أحمد رَحِمَهُٱللَّهُ: «أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشِّركُ، لعَلَّهُ إذا ردَّ بعضَ قوْلِه أَنْ يقعَ في قلبه شيء من الزَّيغ فيَزيغ فيُهْلِكه»(١).

والعذاب الأليم في الدنيا قبل الآخرة في هذا؛ فمخالفة الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من أسباب الضلال العاجل والعذاب الأليم المعجل؛ ولهذا دل هذا على وجوب اتباعه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأنه لا عذر لأحد عرف سُنَّته أو عرف شيئًا من كتاب الله ثم خالفه.



(١) «الإبانة الكبرى» لابن بطة (١/ ٢٦٠)، و«قرة عيون الموحِّدين» (ص١٥-١٦).

[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ويعتقدُون أنَّ الله تعالى مدعوٌّ بأسمائِه الحسنى، وموصوفٌ بصفاته التي سمَّى ووصف بها نفسَه، ووصفه بها نبيُّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

الشرح:

كلمة «مدعوٌّ» الظاهر أنه يُقصَد بها أنه معبود بأسمائه وصفاته كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، أي: اعبُدوه.

وأفضل العبادة أن تكون بأمر الله جَلَّ وَعَلَا، ومن أفضل العبادة الدعاء بأسمائه وصفاته.

قوله: «وموصوفٌ بصفاته التي سمَّى ووصف بها نفسَه، ووصفه بها نبيُّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

أي: يجب أن تكون تسميةُ الله جَلَّ وَعَلَا ووصفُه موقوفةً على الوحي.

وهذه قاعدة يذكرها **أهل السُّنَّة** كثيرًا، يقولون: الأسماء والصفات توقيفية.

أي: أنه لا يجوز لأحد أن يبتدئ بشيء منها من عند نفسه اجتهادًا أو نظرًا أو قياسًا، وإنما هذا يتوقف على الوحي، فإذا جاء به الكتاب أو سنَّة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجب اتباعُه والقول به والإيمان به، والتفقُّه بمعناه.

وتختلف الأسماء عن الصفات من عدة وجوه:

الوجه الأول: أن الأصل هو الصفات، وأن الأسماء أُخِذت من الصفات.

الوجه الثاني: أن الصفة هي المعنى الذي يقوم بالموصوف، والاسم هو ما دل على الذات؛ مثل: الرحمن، والصفة الرحمة؛ والعزيز، والصفة العزة، وهكذا.

وهذا معنى قول العلماء: إن أسماء الله مشتقة، أي: مأخوذة من معانٍ عظيمة هي الصفات، هذا معنى الاشتقاق.

وقد أخطأ بعضهم فعكس!!، فقال: إن الأصل الأسماء، والصفات أُخِذت من الأسماء! وهذا خطأ ظاهرٌ وجَلِيٌّ، وينبغي أن نتأمل المعنى حتى يتبيَّنَ ذلك.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «خلقَ آدمَ بيدِه.

و﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، بلا اعتقادِ كيْفٍ».

الشرح:

أي: مُباشرةً، فمعنى ذلك أن لله جَلَّ وَعَلَا يدينِ حقيقةً يفعل بهما ما يشاء ويباشِرُ بهما ما يشاء، وقد جاء في الحديث عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ بِيَدِهِ: خَلَقَ آدمَ بِيَدِهِ، وَكَتَبَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ، وَغَرَسَ الْفِرْدَوْسَ بِيَدِهِ**»(١).

وقد جاء غيرُ هذه الثلاثة في الحديث الذي ورد في «الصحيحين» من قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ**»(٢).

---

(١) أخرجه الخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (ص: ١٩٨) برقم (٤١٠)، وأبو الشيخ الأصبهاني في «العظمة» (٥/ ١٥٥٥)، وأبو نعيم الأصبهاني في «صفة الجنة» (١/ ٤٨) برقم (٢٣)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ١٢٥) برقم (٦٩٢)، قال البيهقي: «حديث مرسل».

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب الزكاة، باب الصدقة من كسب طيب (٢/ ١٠٨) برقم (١٤١٠)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (٢/ ٧٠٢) برقم (١٠١٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والفَلُوُّ هو فصيل الفَرَس، وقد كان العرب يعتنون به عناية فائقة أكثر من عنايتهم بأولادهم.

وقد وصف الله جَلَّ وَعَلَا نفسه باليد في آيات كثيرة كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقوله جَلَّ وَعَلَا في خطابه لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [صَ: ٧٥].

ومع ذلك ردّها أهل البدع، وهم في هذا على نوعين:

النوع الأول: ردُّوها أصلًا، وقالوا: لا نقبل هذا؛ لأن هذا يدل على التشبيه، والله جَلَّ وَعَلَا لا يشبهه شيء.

النوع الثاني: أَوَّلوها تأويلًا يَؤُولُ إلى الرَّدِّ، مثل الأشاعرة، قالوا: اليدُ القوَّةُ أو النِّعمةُ، وما أشبه ذلك.

وهذا ليس خاصًّا باليد، بل أَوَّلوا كل الصفات، وزعموا أنهم قَبِلوا منها سَبعَ صفات؛ لأنهم يقولون: اجتمع عليها دَلالةُ العقل، ودَلالةُ السمع فنحن نقبلها!.

ولكن الحقيقة ليست على الظاهر، بل الطريقة عندهم واحدة.

وقد جاءت المبالغة في وصف اليد حتى جاء فيها القبض والبسط والأصابع والكف وغير ذلك مما هو مذكور في سُنة المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول

الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]. روى ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لهذه الآية عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «أن الله جَلَّ وَعَلَا يقبض سمٰواته وأرضه بيده اليمنى، وتبقى يده الشمال فارغة، وإنما يستعين بيده الشمال من كانت يمينه مشغولة»(١).

وهذا لا يجوز أن يقال بالرأي، أو بالتفسير، يجب أن يكون هذا موقوفًا على الوحي الذي أُخذ عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي «صحيح مسلم»: «**يَطْوِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ. ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟**»(٢).

فأثبت الشمال لله جَلَّ وَعَلَا.

وقول بعض أهل العلم في أن كلمة «الشمال» التي جاءت في «صحيح مسلم» شاذة غيرُ صحيح، فهذا ليس شذوذًا وإنما هو تأسيس وأصل، والشاذ -كما هو معروف- هو ما يُخالف الثابت، فإذا جاء حديث يخالف ما هو ثابت معلوم يقال عنه: شاذ، وهنا لم تخالف كلمة «الشمال» شيئًا.

---

(١) «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٢٥).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه»، في كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٤/ ٢١٤٨) برقم (٢٧٨٨) من حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ثم إن الاستدلال بقوله: «كِلتَا يدي ربي يمين»[1]، ليس صحيحًا على هذا المعنى الذي قاله، بل هو خطأ قطعًا، لأنه فُهم من هذا أن كلتا يدي ربي من ناحية واحدة، تعالى الله وتقدس، وهذه شُوهة؛ لأن معنى: «وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ»، أن كلتا اليدين طاهرة كاملة تامة لا يلحقها نقص ولا عيب، وليست كيَدِ المخلوق يمينُه أكمَلُ من شماله، والله جَلَّ وَعَلَا يخاطب العرب بلغتهم، فهم يعلمون ويعرفون أن اليمين أقوى من الشمال؛ ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝﴾، أي: الأخذ القوي، ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

فعلى كل حال لربنا يدان كاملتان تامتان لا يلحقهما نقص ولا عيب، تعالى الله وتقدس، يقبض بهما ويبسط بهما، ويفعل ما يشاء، وثبت في «الصحيحين» عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: كنت مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجاء حبر من أحبار اليهود قال: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمٰوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ

---

(١) إشارة إلى ما أخرجه مسلم في «صحيحه»، في كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم (٣/ ١٤٥٨) برقم (١٨٢٧) من حديث عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّوَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا».

وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ أَنَا المَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧][(١)].

وثبت كذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**»[(٢)].

فإذًا له يدان وله أصابع يقبض بهما ويبسط كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ **يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»[(٣)]. فهذا من الكمال، أما أهل البدع فلا يقبلونها؛ ولهذا سَمَّوا من قال بهذا وقَبِله وآمن به واعتقده مُشَبِّهًا!



(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، (٦/ ١٢٦) برقم (٤٨١١)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٤/ ٢١٤٧) برقم (٢٧٨٦).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه»، في كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء (٤/ ٢٠٤٥) برقم (٢٦٥٤) من حديث عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه»، في كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة (٤/ ٢١١٣) برقم (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ**]: «وأنَّه** عَزَّ وَجَلَّ**: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾** [الأعراف: ٥٤]، **بلا كيفٍ.**

فإنَّ الله تعالى أنهى إليّ أنه ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ولم يذكُر كيف كان استواؤه».

الشرح:

أي: نرجعه إلى حقيقة الاستواء، وهذا لا يجوز، بل يجب أن نقول: بلا كيفٍ يعلمُه الخلق؛ لأن الكيفية هي الحالة التي يكون عليها، وهذه تتوقف على المُشاهَدة، وهي ممتنعة؛ لهذا أُطْلِقَت بلا كيفٍ.

قوله: «فإنَّ الله تعالى أنهى إليّ أنه ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾».

لا يصح أن يقال: «إليَّ»، والمعنى أنهى، أي: أخبرنا جَلَّ وَعَلَا أنه استوى على العرش.

قوله: «ولم يذكُر كيف كان استواؤه».

أي: لم يذكر لنا الكيفية، فيجب أن نقف مع خبره الذي أخبرنا به، ولا نتجاوز ذلك، وهذا هو الواجب.

وقد فسر السلف الاستواء بأربعة ألفاظ، وكلها مترادفة:

قال بعضهم: استوى، أي: **ارتفع.**

قال بعضهم: استوى، أي: **علا**، كما ذكر ذلك البخاري في «صحيحه» عن أبي العالية، والاستواء هو العُلُّو[1].

---

(١) «صحيح البخاري» (٩/ ١٢٤).

قال بعضهم: استوى، أي: صَعِد.

قال بعضهم: استوى، **أي: استقرَّ**.

فهذه ألفاظ أربعة هي تفسير للاستواء، مع أنه واضح، والشيء الواضح لا يحتاج إلى تفسير، ولكنْ زيادة اعتناء بهذا الأمر؛ لأن أهل البدع ردُّوه ولم يَقْبَلوه.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «وأنَّه مالكُ خَلْقِهِ، وأنشأهم لا عن حاجةٍ إلى ما خَلَقَ، ولا لمعنىً دعاهُ إلى أن خَلَقهم».

الشرح:

المالك الذي يتصرف في الشيء، فالله جَلَّ وَعَلَا له التصرف والتدبير، تعالى وتقدس، وهو المنشئ لكل شيء الموجد له من العدم، والخلق ليس لهم معه شيء، فالأمر كله لله تعالى وتقدس.

قوله: «وأنشأهم لا عن حاجةٍ إلى ما خَلَقَ».

أي: أنه لا يحتاج إليهم، بل هو الغني بذاته عما سواه تعالى وتقدس.

قوله: «ولا لمعنىً دعاهُ إلى أن خَلَقهم».

هذا ليس على إطلاقه؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا ذكر أنه خلقهم لعبادته، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فهو خلقهم لعبادته، ولا يلزم مِن خَلْقِهم أن توجد منهم العبادة؛ لأن هذا هو الأصل فيه، ومثل ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩﴾ [القيامة: ٣٦ - ٣٩]، جاء في التفسير المروي عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: ﴿سُدًى﴾ أي: لا يؤمَر ولا يُنهى[1]، وأنه متروك مُهمَل. فهذا أيضًا من

(١) «تفسير الطبري» (٢٤/ ٨٣).

معاني الخلق؛ فقد خلقهم ليأمرهم وينهاهم، وقد جاء بهذا اللفظ عن بعض الصحابة أنه خلقهم ليأمرهم وينهاهم.

أي: تَعبَّدهم بذلك، وهذا معنًى.

يقول: إنه خلقهم لا لمعنى؛ والذي يظهر أن مقصوده أنه ليس هناك علة دعت الله جَلَّ وَعَلَا إلى أن يخلق الخلق، بل خلقهم جَلَّ وَعَلَا لكي يأمرهم وينهاهم، ولكي يعبدوه.

الكلام الذي يأتي عن العلماء ويحتمل الباطل والحق يجب أن يُحمَل على الحق، ويجب أن يُبحَث عن أحسن محامل الأمر، وأن يُبيِّنَ الأمر الآخر لئلَّا يقع فيه.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «لكنَّه فعَّالٌ لما يشاء، ويحكمُ ما يُرِيد».

الشرح:

نص الآية قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البروج: ١٦]، وهذا أحسن؛ لأن المشيئة ترادف الإرادة الكونية فقط، فالمشيئة واحدة لا تنقسم، أما الإرادة فهي تأتي ويُقصَد بها المشيئة، وتأتي ويُقصَد بها الإرادة الدينية، ولكنَّ الإرادة الدينية لا تكون إلا لأهل الدِّين ممن قَبِل أمرَ الله، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، لم يُرِدِ التيسيرَ في الشرع بكل الخلق، وإنما أراده بمن قبل أمْرَه ونَهْيَه، وأطاعه؛ ولهذا يسمِّي أهلُ السُّنَّة هذه الإرادة: الدِّينيةَ الشرعيةَ الأمْريَّةَ، ويسمون الإرادة الأخرى كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، إرادةً كونيةً قَدَرية، وهي مشيئة الله جَلَّ وَعَلَا.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ لا يمكن أن يكون لمخلوق أبدًا، فالمخلوق يفعل بعض ما يريده ويَعجز عن بعضه مهما كان، حتى وإن كان أعلى الناس.

وهذا من خصائص الله جَلَّ وَعَلَا أنه فعَّال لما يريد، وهو جَلَّ وَعَلَا يفعل لحكمة تعالى وتقدس، ولا يفعل عبثًا كما يقول أهل الضلال من أنه يفعل

لا لحكمة، بل هو جَلَّوَعَلَا يفعل على حسَب مشيئته؛ ولهذا سمى نفسه حكيمًا، تعالى الله وتقدس.

قوله: «**ويحكمُ ما يُريد**».

يبدو أنه قال: «**لكنَّه فعَّالٌ لما يشاء، ويحكمُ ما يُريد**» لأجل الموازنة بين الكلام، فيكون الكلام متوازنًا باللفظ وإلا فالمعنى واضح في هذا.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، والخَلْقُ مَسؤولون عمَّا يفعلون».

الشرح:

المالك المتفرد بالشيء لا يُسأل عما يفعل، وإن سُئِل عن ذلك فهي زندقة وخروج عن العبودية؛ ولهذا يعترض الزنادقة على أحكام الله جَلَّ وَعَلَا، يقولون: لماذا نغسل أيدينا ووجوهَنا وأقدامَنا إذا أردنا أن نصلي؟! ليس لهذا حكمة.

أي: أنهم أرادوا أن تكون الحكمة مُدرَكة عندهم، مع أنه لو لم يكن هناك حكمة لوجب عليهم أن يُسَلِّموا لأمر الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأنهم عبيد، والعبد لا يجوز أن يعترض على سيده في شيء.

ولكِنْ كُلُّ ما أمر به الله جَلَّ وَعَلَا لحكمة، وقد جاءت النصوص بأن هذه طهارة للأعضاء من الدنس والذنوب كما ثبت ذلك عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١).

وكذلك يقولون: لماذا أُمِرنا بقصد البيت والطواف حوله وإنفاق

---

(١) أخرج مسلم في «صحيحه»، في كتاب الطهارة، باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء (١/ ٢١٥) برقم (٢٤٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ».

الأموال وإتعاب الأبدان؟ ونحو ذلك في المشاعر كلها كالوقوف بعرفة ومزدلفة ورمي الجمار والمبيت بمِنى والتزاحم على ذلك وإنفاق الوقت.

كل هذا اعتراض على الله جَلَّ وَعَلَا، فكل هذه الأفعال لحكمة وإن لم يدركها الإنسان، مثل تعبُّد القلوب؛ إذ يجب أن يكون القلب مُعَبَّدًا لله جَلَّ وَعَلَا ومنقادًا في هذه الأمور له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم ذلك؛ ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم: «لبَّيْكَ حقًّا حقًّا، لبَّيْكَ تَعبُّدًا ورِقًّا». أي: أننا نجيب ما أمرتنا به عبادةً لك ولو لم نفهم ذلك ولم نعقِلْه؛ لأنهم يفهمون عن الله جَلَّ وَعَلَا هذه الأشياء، أما الزنادقة فهم يعترضون على هذا ويقولون: إنه لا معنى له.

والمقصود أن أفعال الله جَلَّ وَعَلَا كلها مُحكَمة مُتقَنة، ولحكمة وغاية محمودة يُحمَد عليها جَلَّ وَعَلَا.

ويجب أن نعتقد هذا، وهو جَلَّ وَعَلَا لا يُسأل عن أفعاله؛ لأن السائل يجب أن يكون فوق المسؤول ومسيطرًا عليه، والله جَلَّ وَعَلَا هو القهار لكل أحد، ومن توقف فهو يتوقف في هذا تردُّدًا أو تكبرًا فهو سالك مسلك الشيطان الذي قال عندما أُمر بالسجود: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٌ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، معترضًا على أمر الله جَلَّ وَعَلَا.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «وأنَّه مدعوٌّ بأسمائه الحسنى، وموصوفٌ بصفاته التي سمَّى ووصف بها نفسه، وسمَّاه ووصفه بها نبيُّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لا يُعجزُه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، ولا يُوصف بما فيه نقصٌ أو عيبٌ أو آفةٌ، فإنَّه عَزَّوَجَلَّ تعالى عن ذلك».

الشرح:

هذا تكرار مثل ما سبق، وأن المدعو معبود بأسمائه الحسنى، وهذا بمعنى الأمر.

قوله: «لا يُعجزُه شيءٌ في الأرض ولا في السماء».

أي: أنه على كل شيء قدير، وقدرته جَلَّوَعَلَا يجب أن تكون عامة شاملة مُطلَقة، لا تُقَيَّد بشيء، وإن كان بعض الناس يقيّدونها بأمور موهومة، بل ظُنونٍ كاذبة لا حقيقةَ لها.

قوله: «ولا يُوصف بما فيه نقصٌ أو عيبٌ أو آفةٌ، فإنَّه عَزَّوَجَلَّ تعالى عن ذلك».

أي: أن أوصافه كاملة وتامة، والله جَلَّوَعَلَا تعرَّف إلى عباده بأوصافه، ولهذا إذا جاءهم يوم القيامة يعرفونه كما يقول الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يعرفون ربهم بما تعرَّف إليهم في الدنيا من أوصافه»[1].

---

(١) «نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي» (١/ ٣٨٧).

ولكن هذا ليس في كل موطن من مواطن القيامة؛ لأن المواقف تختلف، وقد ثبت في «الصحيحين» أنه: «**فَيَأْتِيهِمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ، هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ تَعَالَى فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتَّبِعُونَهُ**»[1].

أي: بالصفات التي تعرَّف بها إليهم.

وقد اعترض شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذا وقال: ليس هذا بصحيح، بل هذا كما في «صحيح مسلم»، أنه يأتيهم بصورة غير الصورة التي رأوه فيها أول مرة[2]، فيتنكر عليهم من باب الابتلاء والاختبار، فعرفوه لأنهم رأوه أول مرة[3].



(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب الأذان، باب فضل السجود (١/ ١٦٠) برقم (٨٠٦)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١/ ١٦٣) برقم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه»، في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١/ ١٦٣) برقم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٣٤٢).

[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «وخلقَ آدمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بيَدِه.

و﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، بلا اعتقاد كيف يداه، إذ لم ينطق كتاب الله تعالى فيه بكيفٍ.

ولا يُعتقد فيه الأعضاءُ، والجوارحُ، ولا الطولُ والعَرْضُ، والغلَظ، والدِّقة... ونحو هذا ممَّا يكون مِثْلُه في الخلق؛ فإنَّه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، تبارك وجهُ ربِّنا ذي الجلال والإكرام».

الشرح:

قد تقدم الكلام عن ذلك، ويبدو أن هذا تكرار من الكاتب، أو أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كرره لأهميته، والله أعلم.

قوله: «ولا يُعتقد فيه الأعضاءُ، والجوارحُ، ولا الطول والعَرض، والغلَظ، والدِّقة...».

لا أدري كيف دخل هذا على المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأن هذا من كلام أهل البدع، ومثل هذا الكلام يجب أن يُتوقَّف فيه لا يُقبَل ولا يُرَد حتى يُسْتفسَر من القائل ماذا يقصد بالأعضاء والجوارح؟

فإن فسر ذلك بأمر باطل رُدَّ عليه.

وقيل له: لفظك ومعناك كلاهما باطل لا نقبله.

وإن فسره بمعنى صحيح قلنا: نقبل المعنى ونَرُدُّ اللفظ، ولكن هذا المعنى يجب أن يُعبَّر عنه بالعبارات الشرعية الواردة، فهذه العبارة يجب أن يُتوقَّف فيها، ولا تُقبَل على إطلاقها، ولا تُرَد.

أما الطول والعرض فقد جاء في حديث آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ ...»[1] إلى آخره. فيجب أن يُقبَل الحق فقط الذي جاء به النص، وأن يرد الباطل، تعالى الله وتقدس.

قوله: «ونحو هذا ممَّا يكون مثله في الخلق».

أي: من الألفاظ التي يذكرها أهل الكلام، ويقصدون بذلك رَدَّ ما وصف الله جَلَّ وَعَلَا به نفسه تعالى الله وتقدس.

قوله: «فإنَّه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]».

يجب أن يُرجع في هذا إلى هذه الآية؛ لأنها أصل في هذا، الله ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في أوصافه، وأسمائه جَلَّ وَعَلَا، فالخصائص التي تخصه لا يشاركه فيها مخلوق، هذا هو المعنى.

وليس المعنى رَدَّ شيءٍ من صفاته كالسمع والبصر، ولهذا نص في آخر هذه الآية على إثبات السمع والبصر، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١]، يقول بعض العلماء: الحكمة في هذا أن الخلق يتصفون بهذين الوصفين فكأن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول لنا: لا يدعوكم قولي ليس كمثلي شيء أن تردوا الصفات، ومنها الشيء الذي تتصفون به مثل

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب الاستئذان، باب بدء السلام (٨/ ٥٠) برقم (٦٢٢٧)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن ضرب الوجه (٤/ ٢٠١٧) برقم (٢٦١٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

السمع والبصر، فإن هذا إذا أضيف إلى الله يكون خاصًّا به لا يشاركه فيه غيره، وإذا أضيف إلى مخلوق فهو خاص للمخلوق، بل ما يخص زيدًا لا يشاركه فيه عمرو، فالصفات والأفعال عند الإضافة والتخصيص يزول عنها الاشتراك، وإذا فُهم هذا حُلَّت إشكالاتٌ كثيرة مما يُشكِل على كثير من الناس.

قوله: «تبارك وجهُ ربِّنا ذي الجلال والإكرام».

قوله: «تبارك»، أي: تعاظم وتقدَّس وكَثُر خيره، ولهذا يزيد الأمور الخيرية وتنمو بذكْره، ويدخل في هذا تقديسُه وتكبيره تعالى عن أن يشارك أحدًا من الخلق، أو يشابهه شيء من خلقه.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ولا يقولون: إنَّ أسماءَ الله غيرُ الله كما يقوله المعتزلة، والخوارج، وطوائف من أهل الأهواء».

الشرح:

المعروف أن الخوارج ليسوا أهل كلام وفلسفة، وإنما هم أهل سيف وقطع، وخروج على الجماعة؛ ولهذا تجدهم من أقل الناس كلامًا في مثل هذه الأشياء، ولكن فيما بعدُ دخل عليهم شيء من مذاهب المُعتَزلة والجَهمِيَّة وغيرهم.

«**المعتزلة**»: أصل الاعتزال الافتراق، واعتزل الشيء إذا فارقه وعزل عنه، وصار في جانب.

فيكون الأصل في هذا ما رُوِيَ أن رجلًا قال للحسن البصري: يا إمام الدين، لقد ظهرت في زماننا جماعةٌ يُكفِّرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كُفرٌ يُخرج به عن الملة وهم الخوارج، وجماعة يُرجِئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركنًا من الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادًا؟

فتفكَّر الحسن في ذلك، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول: أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقًا، ولا كافر مطلقًا، بل هو في منزلة بين المنزلتين: لا مؤمن ولا كافر.

ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتَزَل عنا واصِلٌ!

فسُمِّيَ هو وأصحابه معتزلةً[١].

ثم اختلفت المعتزلة وصارت فِرَقًا كثيرة تزيد على أربع وعشرين فرقةً، وهكذا التفرق يتولد منه تفرُّق، وفيهم العُبَّاد، وفيهم العلماء، وفيهم الزُّهَّاد، وفيهم الذين ردوا على الفلاسفة وعلى الرافضة الردودَ البليغة مثل القاضي عبدالجبار الذي نُشرت بعض كتبه ومنها كتاب: «المغني في أبواب التوحيد والعدل» الذي رد فيه ردًّا بليغًا جدًّا على الرافضة، والأدلة العقلية مقنعة، وكذلك كتابه «تثبيت دلائل النبوة»، وهو كتاب جيد ممتاز ولكِنْ فيه شيء من المذهب.

والمقصود أن أمرهم ليس كله مذمومًا، وهم لم يخرجوا بذلك عن الإسلام، ومثلهم الخوارج، وقد سُئل عنهم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعدما قتلهم، قيل: أكفَّارٌ هم؟ قال: لا، مِنَ الكُفر فرُّوا[٢]، ولكنَّهم ضُلَّال.

وقد ذهب الناس في هذه المسألة إلى ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: أن أسماء الله غيره.

---

(١) «الملل والنحل» (١/ ٤٨).

(٢) «مصنف عبدالرزاق» (١٠/ ١٥٠).

والواقع أن كلمة «غير» هذه باطلة، وهؤلاء الذين ينصبون الخلاف في أمور واضحة لا يجوز أن يُذكَر قولهم أو يُدرس؛ لأن الباطل عند ذكره ودرسه يزيد وربما يوقع الشبهات على بعض الناس فيَصعُب حلُّها.

وأهل السُّنَّة ينكرون كلمة «غير»، فأسماء الله لا يجوز أن تكون غيره، ولا يجوز أن تكونَ هي هو، تعالى الله وتقدس.

يقول الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في «صريح السُّنَّة»: «القول في الاسم: أهو المسمى أم غير المسمى؟ فإنه من الحماقات الحادثة التي لا أثر فيها فيُتَّبَع، ولا قول من إمام فيُستَمَع، فالخوض فيه شَين، والصمت عنه زَين»[1].

أي: أنه من الأمور التي نحن في غنى عنها، ولم يسبق فيها كلام للسلف، فيجب أن تُرَدَّ، ولكنها كثُرت في كتب أهل السُّنَّة أيضًا.

المذهب الثاني: الاسم هو المُسمَّى، فهو عينه ونفسه، ويستدلون بمثل قوله: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾، ثم قال: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ [مريم: ٧، ١٢]، فدعا الاسمَ نفسَه، فدل على أن الاسم هو المُسمَّى، وهذا ليس صحيحًا، كما يستدلون بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى: ١]، فسَبِّح الاسمَ يدُلُّ على أن الاسم هو المُسمَّى.

---

(١) «صريح السنة» للطبري (ص: ٢٦).

قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال قوم: معناه نزِّه ربك الأعلى عما يصفه به الملحدون.

وجعلوا الاسم صلة، ويحتج بهذا من يجعل الاسم والمسمى واحدًا، وقال آخرون: نزِّه تسمية ربك بأن تذكره وأنت له معظِّمٌ ولذِكْره مُحترِم. وجعلوا الاسم بمعنى التسمية»(١).

أما المذهب الثالث وهو الصحيح الذي يجب أن يؤخذ به، وهو أن **الاسم للمسمى**؛ لقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. فبهذا التفصيل يزول الإشكال.



(١) «تفسير البغوي» (٥/ ٢٤١).

[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ**]: «ويثبتون أنَّ له وجهًا، وسمعًا، وبصرًا، وعلمًا، وقدرةً، وقوةً، وعِزَّةً، وكلامًا، لا على ما يقوله أهل الزَّيغ من المعتزلة وغيرهم».**

الشرح:

هذه من صفات الله جَلَّ وَعَلَا، وصفات الله جَلَّ وَعَلَا -كما ثبت- عُليا، وأسماؤه حسنى، والحسنى هي التي لا يلحقها نقص ولا عيب، فمعنى ذلك أنها خاصة به لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، أي: ليست لغيره، فلا يسمى بها أحد، وإن تسمى بها متسَمٍّ فله من معنى الضعف الذي يليق به ما لا يدخل في أسماء الله جَلَّ وَعَلَا، فيزول الاشتراك عند الإضافة والتخصيص، وهذا من الأمور التي أشكلت على بعض الناس؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا سمى نفسه مَلِكًا، وسمى بعض خلقه مَلِكًا، وسمى نفسه رؤوفًا ورحيمًا، وسمى بعض خلقه رؤوفًا ورحيمًا؛ فإذا أضيف الاسم إلى الله زال هذا الاشتراك، أو إذا أضيف إلى المخلوق زال، وهذا هو شرط الإطلاق أنه لا يفيد شيئًا.

فإذا قلت مثلًا: رؤوف، فأنت لم تُضِفْ ما يدل على شيء حتى تضيفه إلى من يتصف به أو يتسمى به، وعند الإضافة يزول هذا الاشتراك.

فيجب أن يُفهم هذا حتى تنحَلَّ الإشكالات الموجودة عند أهل البدع.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ولكن كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]».

الشرح:

وصف للوجه؛ ولهذا أضيف إلى رب: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ هذا دليل على أن هذا وصف لوجه الله جَلَّ وَعَلَا، وليس كما يقول أهل البدع: لو قلنا بهذا لزم أن غير الوجه يفنى، فقد قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧]؛ فعبَّر بالأشرف والبقية تبع له؛ عبر بالوجه والبقية تتبعه.

وفي هذا دليل على أن لله وجهًا تعالى وتقدس، وقد جاءت أحاديث وآيات تدل على أن لله وجهًا كقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣]؛ فالوجوه تنظر إلى وجه الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا لا يحاط به.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «وقال: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: ١٠]».

الشرح:

مقصوده بهذا إثبات صفة العلم، وهذا من أبلغ الأدلة على أن لله جَلَّ وَعَلَا علمًا يتصف به، ولا يختلف في هذا إلا أهلُ البدع مثل المعتزلة.

قوله: «وقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: ١٠]».

أي: أن العزة صفة له جَلَّ وَعَلَا.

أما قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]؛ فقوله: ﴿رَبِّ﴾ هنا بمعنى صاحب، أي: صاحب العزة؛ لأن المربوب مخلوق.

عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، أنه: «صلى على جنازة فقال رجل: اللهم ربَّ القرآن العظيمِ اغفر له، فقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ إِنَّ الْقُرْآنَ مِنْهُ، إِنَّ الْقُرْآنَ مِنْهُ»[1].

أي: أن القرآن ليس مربوبًا، فالمربوب مخلوق، والقرآن صفة لله جَلَّ وَعَلَا.



(١) «شعب الإيمان» (١/ ٣٣١)، و«شرح السنة» للبغوي (ص١٨٥)، و«الإبانة الكبرى» لابن بطة (٥/ ٢٧١)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٢/ ٢٥٦).

[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧].

وقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾ [فصلت: ١٥].

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨]».

الشرح:

قوله: ﴿بِأَيۡيْدٍ﴾ هنا ليس جمع يد، وإنما المقصود: بقُوَّةٍ وقُدرةٍ، وقد جعلها بعضهم من آيات الصفات، فإذا كانت من آيات الصفات فهي تدل على القدرة والقوَّة.

قوله: «وقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾ [فصلت: ١٥]».

صفة القوة هنا تثبت لله جَلَّ وَعَلَا، فهو: ﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ والقوة صفة، والمتانة صفة للقوة.

قوله: «وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨]».

الله جَلَّ وَعَلَا له القوة والقدرة التامة كلها.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «فهو تعالى ذو العلمِ، والقوةِ، والقدرةِ، والسَّمعِ، والبصرِ، والكلامِ» كما قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧].

وقال: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

وقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]».

الشرح:

وقوله: «فهو تعالى ذو العلمِ، والقوةِ، والقدرةِ، والسَّمعِ، والبصرِ، والكلامِ».

الله تعالى ذو العلم، والقوة، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام، والصفاتُ في هذا الباب واحدة لا تختلف، فالمنهج واحد في كل ما ثبت في كتاب الله وفي أحاديث رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيجب أن تثبت مع وجوب الإيمان بها ودعاء الله جَلَّ وَعَلَا بها، واعتقاد معناها الذي يتصف به الله جَلَّ وَعَلَا، وأنه لا يشابه فيها خلقه، تعالى الله وتقدس.

وقوله: «كما قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾».

ذكر بعض الصفات هنا للتمثيل، كما قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ أي: الدليل على إثبات البصر.

والبصر هو الذي يُبصَر به، وهو العين، والله موصوف بهذا، فقوله ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾، أي: على مرأًى مني، ويلزم من هذا الحفظ والكلاءة.

وقد جاءت صفة العين في كتاب الله مفردة ومجموعة، ولم تأتِ مثنَّاة حتى في السُّنَّة إلا في مفهوم؛ يُفهَم من قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في «الصحيحين»: «إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ»[1]؛ لأن العور في لغة العرب هو فقد إحدى العينين، فهذا يدل على التثنية. ولكن السبب في هذا أن المثنّى إذا أضيف إلى ياء المتكلم يُفرَد وإذا أضيف إلى الجمع يُجمَع وإن كان مثنى، كقوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، فهما قلبان فقط، ولكن إذا أضيف المثنى إلى الجمع جُمِع، هذه هي اللغة الفصحى التي جاء بها القرآن؛ لذا لم تأتِ العين مثناة، وإلا فلله عينان تعالى وتقدس يبصر بهما كل شيء، ولا يحول بينه وبين الرؤية شيء، فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[2]، وبصره لا يمكن أن ينتهي دون شيء، تعالى الله وتقدس.

وقوله: «﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧]».

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب الفتن، باب ذكر الدجال (٩/ ٦٠) برقم (٧١٣١)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٤/ ٢٢٤٨) برقم (٢٩٣٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه»، في كتاب الإيمان، باب في قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إن الله لا ينام»، وفي قوله: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» (١/ ١٦١) برقم (١٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

جاءت العين في الآية السابقة بلفظ المفرد ﴿عَيْنِيٓ﴾، وجاءت في هذه الآية بلفظ الجمع: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾؛ لأن العين أضيفت إلى ضمير الجمع «نا» فجُمعت.

وقوله: «﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]».

هذه صفة أخرى وهي الكلام، والكلام يجب أيضًا أن يثبت لله جَلَّوَعَلَا على ظاهره. أي: أن الله يتكلم حقيقة بحرف وصوت، وقد جاء ذكر الأدلة في هذا في كتاب الله.

وقد ذكر هنا بعض الصفات؛ فكلام الله يُسمَع، والشيء الذي يُسمَع يجب أن يكون منطوقًا به، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ومن المعلوم أنه يُسمَع كلام الله من المُبَلِّغ، وليس من الله جَلَّوَعَلَا، إذًا فالقرآن كلام الله تكلم به حقيقة.

وقوله: «﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]».

﴿تَكْلِيمًا﴾ مصدر كلَّم، وهذا من أبلغ الأدلة على إثبات أن كلامه حقيقة.

قال بعضهم لأبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة: أريد أن تقرأ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهَ مُوسَىٰ﴾، بنصب اسم الله، ليكون موسى هو المتكلم لا الله! فقال أبو عمرو: هبْ أني قرأت هذه الآية كذا، فكيف تصنع بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؟! فبُهِت المُعتزلي![1].

---

(١) ينظر: «شرح الطحاوية» لابن أبي العز (ص١٧٠).

يقول بعض أهل البدع: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾، أي: جَرَّحه بأظافيرِ الحِكمة!![1].

وهذا مما يُضحِك، فلغة العرب لا تحتمل غير الكلام؛ لأنك إذا قلت مثلًا: ضربت فلانًا؛ فهذا يحتمل أنك ضربته بسوط أو ضربته بكلام يؤثِّر فيه.

وإذا قلت: ضربته ضربًا؛ فهذا لا يحتمل إلا أنك ضربته بما يُضرَب به، كالسوط أو اليد.

وقوله: «**وقال تعالى:** ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]».

وهذا أيضا من أبلغ الأدلة على إثبات الكلام، فالقول والكلام شيء واحد، ومن الأمور البليغة التي دلت على حقيقة الكلام النداءُ الذي جاء مضافًا إلى الله جَلَّ وَعَلَا.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكر سبحانه النداء في تسعة مواضع في القرآن أخبر فيها عن ندائه بنفسه»[2].

والحقيقة أنه جاء في أحد عشر موضعًا أو أكثر؛ لأن ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ لم يذكر إلا الشيء الواضح الجلي، أما الشيء الذي فيه احتمال مثل قوله: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ﴾ [مريم: ٥٢]، فلم يذكره؛ لأنه جاء بلفظ البناء

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٦٥).

(٢) «مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» (ص: ٤٨٧).

للمجهول، ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ [طه: ١١]، وهذا لم يذكره، فذكر مثلًا قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، والنداء يكون بالحرف والصوت الذي يُسمَع من بُعد، ولهذا اختار العرب له أحرفًا مُعَيَّنة، مثل: «الألف»، و«الياء»، والحروف التي تدل على المد؛ لأنه يحتاج إلى مد الصوت.

وثبت ذلك أيضًا في أحاديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما جاء في «صحيح البخاري» من حديث أُنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يُحْشَرُ الْعِبَادُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ بُعْدٍ كَمَا يَسْمَعُهُ مِنْ قُرْبٍ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ**». وقد ذكره البخاري في «صحيحه» معلقًا، ولكنه رواه في كتابه «خلق أفعال العباد» بسنده المتصل، وهو حديث صحيح(١).

وثبت أيضًا في «صحيح البخاري» قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن الله جَلَّ وَعَلَا ينادي آدم بصوت: «**يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ. قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ**»(٢).

---

(١) ذكره البخاري معلقًا في «صحيحه» (٩/ ١٤١)، وأخرجه أحمد في «مسنده»، في كتاب (٢٥/ ٤٣١) برقم (١٦٠٤٢)، والبخاري في خلق أفعال العباد (ص: ٩٨)، والحديث حسنه الهيثمي في «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» (١٠/ ٣٥١).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج=

المقصود أن إثبات الصوت لله جَلَّوَعَلَا من أبلغ الأدلة على الكلام، وفي أحاديث الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الكثير من هذا؛ فالأدلة على هذا كثيرة، حتى إن البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر أدلة متنوعة على هذا في كتابه «الصحيح».

ومثل الخطاب الذي يكون لجبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خاصة: «**إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ**»[1].

ومثل الخِطاب الفردي الذي يكون يوم القيامة لبعض الناس من الله جَلَّوَعَلَا، ومثل الخطاب العام الذي يكون لهم جميعًا، وغير ذلك.

إن كثرة الأدلة لا تُجدي شيئًا مع المنحرفين؛ لأن الذي يريد الحق يكفيه دليل واحد، أما إذا لم يكن يريده فلا فائدة في كثرة الأدلة، ولكنها من باب إقامة الحُجَّة وإزالة الشُّبَه التي يتشبثُ بها بعض الناس.



= (٤/ ١٣٨) برقم (٣٣٤٨)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الإيمان، باب قوله يقول الله لآدم أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين (١/ ٢٠١) برقم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل، ونداء الله الملائكة (٩/ ١٤٢) برقم (٧٤٨٥)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدًا حببه لعباده (٤/ ٢٠٣٠) برقم (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ويقولون ما يقوله المسلمون بأسْرِهم: «ما شاء الله كان، وما لم يَشأْ لا يكونُ»، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]».

الشرح:

أي: إنَّ إثباتَ المشيئة وإثباتَ القَدَر لله جَلَّ وَعَلَا أمرٌ مجمَعٌ عليه عند عوامِّ المسلمين وعُلمائِهم، وكبيرهم وصغيرهم، وهذا من الأمور التي اتَّفَقت عليها الفِطَرُ والعقولُ وأدلةُ الشرع، فكيف يُنكَرُ مثلُ هذا؟!

لكن هل يوجَدُ من ينكِرُ مشيئة الله ؟

نعم هناك من يُقَيِّدونها ويجعلون للإنسان مشيئة خارجة عن مشيئة الله، وهؤلاء هم القدرية والمعتزلة وغيرهم، وهذا ضلال، وهذا ما دعا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يقول فيهم: «إنهم لا ينفكُّون عن الشرك»[1].

ويدخل الشرك في توحيد الصفات كما يدخل في توحيد العبادة، ويدخل في توحيد الربوبية، وهم لا ينفكُّون عن الشرك في هذه الأمور الثلاثة.

وقد قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، أي: أن العباد لهم مشيئة، ولكن مشيئتهم بعد مشيئة الله جَلَّ وَعَلَا، فلا يقع شيء إلا بعد أن يأذن الله جَلَّ وَعَلَا به.



(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٨١).

[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ويقولون: لا سبيلَ لأحدٍ أن يَخرجَ عن علم الله، ولا أن يَغْلِبَ فِعلُه وإرادته مشيئةَ الله، ولا أن يُبدِّلَ عِلمَ الله، فإنَّه العالِمُ لا يجهل ولا يسهو، والقادر لا يُغلَبُ».

الشرح:

وقوله: «ويقولون: لا سبيلَ لأحدٍ أن يخرجَ عن علم الله، ولا أن يَغْلِبَ فِعلُه وإرادته مشيئةَ الله،...إلخ».

قد يُستغرَب مثل هذا الكلام، هل هناك من يُنكِر؟

ولكِنَّ الواقع أن كثيرًا من الناس يظن هذه الأشياء، فنسمع الآن كثيرًا من الناس إذا وقع أحدهم في شيء قال: لو أني فعلت كذا ما حدث كذا.

وهذا يدلُّ على أنه يعتقد أنه يمكن يتغيَّر هذا الأمر، وهذا ضلال؛ فما قَدَّره الله لا يمكن تغييرُه بحالٍ من الأحوال.

وقول بعض الناس: لو أنني لم أفعل كذا ما حدث كذا.

هذا جهل، وقد ورد النهي عن هذا، وأنَّ «لو» هذه تفتح عمل الشيطان[1]؛

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٤/ ٢٠٥٢) كتاب القدر باب الأمر بالقوة وترك العجز حديث رقم (٢٦٦٤) ولفظه: عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«المؤمن القوي، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان».**

وعمل الشيطان هو التأسُّف والتحسُّر، بل والاعتراض على الله جَلَّوَعَلَا، وهذا الذي ذكره الله جَلَّوَعَلَا عن المنافقين في قوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]، أي: أنه يمكن أن يتغير هذا الواقع الذي وقع، أي: أنهم لو أطاعونا ولم يخرجوا ما وقع القتل ولا وقع كذا وكذا.

هذا شيء قد كتبه الله وانتهى، فلابُدَّ من وقوعه، ولهذا قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، أي: أنه شيء فُرِغَ منه، فالشيء إذا وقع دلَّ على أنه لا يمكن أن يتغير، أما قبل الوقوع فالإنسان عليه أن يختار الشيء الذي يرى أنه أصلح وأحسن وأسلم، وإذا وقع الشيء يجب أن يسلِّم، ويعلم أن هذا لا يمكن تغييره.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ويقولون: القرآنُ كلامُ اللهِ غير مخلوقٍ، وأنَّه كيفما تصرَّف؛ بقراءة القارئ له، وبلفظه، ومحفوظاً في الصُّدور، متلوًّا بالألسُنِ، مكتوباً في المصاحف، غير مخلوقٍ، ومن قال بخَلْقِ اللفظ بالقرآن يريدُ به القرآن فقد قال بخَلْقِ القرآن».

الشرح:

هذا عَودٌ على الماضي.

قوله: **«ويقولون: القرآنُ كلامُ اللهِ غير مخلوقٍ...»** مسألة القول بخلق القرآن وقع بسببها فتن للعلماء!؛ لأن الأمر كان بالقوة والجبروت، لهذا صار فيه القتل وفيه السَّجن، وفيه كل أنواع التعذيب التي يمكن أن يعذِّبوا بها، ولهذا لم يصبر إلا الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنه جمع العلماء على هذا فأجاب أكثرهم، وبقي أربعة لم يجيبوا؛ أحدهم: قُتل، والثاني: مات في الطريق إلى المأمون، والثالث: تأوَّل، وبقي الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وحده، هو الذي صبر على هذا، وقد نصره الله جَلَّ وَعَلَا، حتى أتى الله جَلَّ وَعَلَا بالفرج[1].

ولهذا يقول العلماء: الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الجماعة في وقته، وغيره هم أهل الفرقة والضلال في هذه المسألة.

ويقول بعض العلماء في قول الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ**

---

(١) «العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم» (٤/ ٢٦٧).

وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ»[1]: قد يكون واحد مثل ما كان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ، ويكون هو الجماعة.

يعيب كثير من الناس على أهل السُّنَّة ذِكْرَ هذه الأمور الآن، يقولون: أنتم تنبشون القبور، وتذكرون مسائل أكل عليها الدهرُ وشَرِب، فهذه ماتت مع أصحابها وانتهت، دَعُوها واذكروا الشيء الواقع الآن.

لكن الواقع أن هؤلاء لا يفهمون؛ لأن كثيرًا من العلماء -الذين يُسَمُّون أنفُسَهم أهلَ سُنَّة- يقولون بهذا القول، ويتبنَّونه ويجادلون فيه، ولن يزالوا عليه؛ فيجب أن يُفهَم الحق ويُرَدَّ على الباطل في كل وقت؛ لأن هذا يتعلق بدين الله جَلَّ وَعَلَا.

وقوله: «وأنَّه كيفما تصرَّف».

أي: كُتب، أو قُرئ، أو حُفِظ فهو كلام الله لا يختلف.

وقوله: «بقراءة القارئ له، وبلفظه، ومحفوظاً في الصُّدور، متلوًّا بالألسُنِ، مكتوباً في المصاحف، غير مخلوقٍ، ومن قال بخَلْقِ اللفظ بالقرآن يريدُ به القرآن فقد قال بخَلْقِ القرآن».

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب فرض الخمس، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾[الأنفال: ٤١] (٤/ ٨٥) برقم (٣١١٦)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الإمارة، باب قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم»** (٣/ ١٥٢٤) برقم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والحقيقة الظاهرة أن من قال: «لفظي بالقرآن مخلوقٌ» فقد قال بخلق القرآن، وقد ذكر بعضهم أن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بحث هذه القضية في كتابه «درء تعارُض العقل والنقل»، وجعل هذا من أهل الحديث واختلافهم فيه.

وهذا ليس صحيحًا، فشيخ الإسلام لم يذكر أن أهل الحديث اختلفوا في هذا، ولكن ذكر الخلاف في قول الملفوظ به، في لفظه فقط.

فهو خلاف محصور.

وقد ابتُلِيَ البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه المسألة ولهذا أكثَرَ من ذلك في كتابه «الصحيح»، وألف فيه كتابًا خاصًّا سماه «خَلْق أفعال العباد»، وردَّ على شيخه ومن اتبعه في هذا، فقد قالوا: إنه يقول بخلاف ما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والظاهر أن المسألة دخلها شيء من الحسد، فتطورت إلى ما حصل من البخاري، ومن خالفه رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ جميعـًا، وإلا فالأمر واضح، وليس في الأمر خلاف بين أئمة الحديث كما يُفهَم من هذا التعليق، غيرَ أن بعضهم لم يفهم كلام الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ حتى قال ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «اللفظ والملفوظ»: ما أظنُّ هذا الكلام يصح عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ. ثم قيل: إنه يقول من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جَهْميٌّ، ومن قال غير مخلوق فهو مُبتَدِع[(١)].

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ٢٦١).

وهم - كما يقول البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ- لم يفهموا قول الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لدِقَّته؛ لأن كلمة «لفظ» هذه تحتمل أن تكون مصدرًا.

والمصدر معناه تحريك اللسان والشفتين بالكلام، وتحريكُ اللسان وهو أمرٌ مخلوق؛ لأنه فِعْل العبد، ويحتمل أن يكون المقصودُ الملفوظَ به، ولمَّا كان الاحتمال يتطرق إلى هذا وهذا قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جَهميٌّ، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع.

لابُدَّ من التفصيل حتى يتميَّز المخلوق عن كلام الخالق جَلَّ وَعَلَا الذي هو صِفَتُه.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ويقولون: إنَّه لا خالِقَ على الحقيقة إلا الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ أكساب العباد كلها مخلوقةٌ لله، وأنَّ الله يَهدي من يشاء، ويُضلُّ من يشاء، لا حُجَّة لمن أضله الله عَزَّوَجَلَّ ولا عُذر، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، **وقال:** ﴿... كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ [الأعراف: ٢٩-٣٠]».

الشرح:

يشير بهذا إلى الرد على القدرية الذين يقولون: إن العباد يخلقون أفعالهم استقلالًا، وأنه لا دخل لله جَلَّوَعَلَا في ذلك.

وهذا ضلال بيِّن، ولهم شُبَه في هذا منعتهم من القول بأن أعمال العباد مخلوقة، مع إقرارهم بأن العباد مخلوقين.

لا ينكر أحد أن العباد بأسماعهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم وأفكارهم مخلوقون؛ لظهور هذا الأمر، ولكن الشبهة جاءت من فعل الإنسان الكفرَ أو المعصية، فيقولون: إذا قلنا: إنَّ الله خلق الكفر للكافر، والمعصية للعاصي ثم عذَّبه على ذلك كان هذا ظلمًا، فقد فرُّوا من الباطل في زعمهم ولكن وقعوا في باطل آخر!

ويرد عليهم في مثل هذا: إن الإنسان يفعل الفعل بقدرته واختياره، وإذا كان الإنسان عنده قدرة واختيار فلابد من وجود المختار والمقدور عليه،

ولكن من الذي خلق القدرة والاختيار للإنسان؟ **هل خلق الإنسان قدرته واختياره بنفسه؟**

الجواب: لا، لقد خلق الله فيه القدرة والاختيار وجعلهما إليه، وبيَّن له طريق الهدى من طريق الردى، وقيل له: اعمل الخير تُجْزَ به وأكثَر، وإن عملت الشر فسوف تلقى جزاءك، والأمر إليك.

فصار الإنسان يعمل في الحقيقة؛ فإذا صلى فهو المصلي، وإذا أكل فهو الآكل، وإذا آمن فهو المؤمن، فأفعاله تصدر منه حقيقة، سواء كانت في الأفعال الطبيعية، أو الأمور العادية، أو الأفعال التي أُمر بها، أو الأفعال التي نُهي عنها؛ ولهذا استحق الثوابَ على فِعل ما أُمِر به والعقابَ على ترك ما أُمِر به. **هذا هو الجواب عن هذه الشبهة.**

وقد وقع في هذه الشبهة مجادلات منها ما ذُكر من أن عبدالجبار المعتزلي -وهو من أئمة المعتزلة القائلين بالقَدَر- كان مصاحبًا للصَّاحِبِ بنِ عَبَّاد، وكان وزيرًا وكان يجمع العلماء والأدباء في مجلسه ويتناظرون وكان يحب العلم، فكان مجلسه يومًا مملوءًا بالعلماء والأدباء، وكان بجواره القاضي عبد الجبار المعتزلي، فدخل أبو إسحاق الإسفراييني، فلما رآه قال: سبحان من تنزَّه عن الفحشاء.

ففهم أبو إسحاق مراده، وهو أن أهل السُّنَّة يقولون: أن الله قدَّر على الكافر الكُفرَ وعلى العاصي المعصيةَ، فعاقبه عليها، وهذه فحشاء. فأجابه

قائلًا: سبحان من لا يكون في ملكه إلا ما يشاء.

أي: أنتم -أيها المعتزلة والقدرية- تقولون: إن الله جَلَّوَعَلَا أراد من الكافر الإيمانَ والكافر أراد الكفر فوقعت إرادة الكافر، فهذا شيء لم يشَأْه الله، أي: يُنَزَّه ربنا عن أن يكون في ملكه ما لا يشاؤه.

فقال له عبد الجبار: أيريد ربنا أن يُعصى؟

فأجابه قائلًا: أيُعصى ربنا قَسرًا؟ أي: يُعصى وهو لا يريد.

فقال له عبدالجبار: أرأيت إن حكم عليَّ بالردى أأحسن إليَّ أم أساء؟

قال: إن كان منعك حقَّك فقد أساء، وإن كان منعك فَضْلَه فهو يؤتي فضله من يشاء.

فقال: الحاضرون: والله ليس عن هذا جواب. فكأنما أُلْقِمَ حجرًا(١).

والمناظرات في هذا قد تنفع وقد لا تنفع، خصوصًا إذا كان الإنسان صاحبَ هوًى ولا يريد إلا مذهبه، فهذا لا يسمع إلا ما يوافق إرادته وهواه، وكلام الله أبلغ من هذا وأحسن وأجمل، وكذلك كلام رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وقد ذكر الله جَلَّوَعَلَا احتجاج الكفار على شركهم بمشيئة الله، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥].

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٤/ ٢٦١)، «لوامع الأنوار البهية» (١/ ٣٣٩).

وقال في موضع آخر: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾، ثم قال: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٤٩]، ومرادهم في هذا رد ما جاء به الرسول لا إثبات المشيئة لله، يقولون: إنك جئتنا بالتوحيد بأن نعبد الله ونترك الشرك، وشركنا إنما وقع بمشيئة الله، ولو شاء ما وقع، فهو دليل على أنه راضٍ به، وأنَّ ما جئتنا به ليس صحيحًا!

اعترضوا بالقَدَر على الشرع، وهذه طريقة المشركين.

فهذه من الحجج الباطلة، والله جَلَّوَعَلَا له المشيئة التي لا تغالب، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولكنه لا يظلِم أحدًا تعالى وتقدس، فخلق الخلق المكلَّفين، وجعل لهم قدرة وقوة، وأمرهم بالشيء الذي يستطيعونه، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، ولكن الفضل والهدى بيد الله جَلَّوَعَلَا.

وقوله: «وأنَّ الله يَهدي من يشاء، ويُضلُّ من يشاء».

أي: أن الهداية والإضلال بيده تعالى.

والإضلال معناه أنه يمنعه الهدى، فالهدى فضلُه، وهو ما ذكره الله جَلَّوَعَلَا من كونه جَلَّوَعَلَا يُزَيِّن الإيمان في القلوب ويُكَرِّه ضِدَّه من الكفر والفسوق، كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٧-٨]، هؤلاء

يُحَرِّفون كلام الله ويقولون: إن تزيين الإيمان وتكريه الكفر معناه أن الله يقيم الأدلة، أما أنه يخلق شيئًا في القلوب فيُنكرون ذلك.

وهذا ضلال بيِّن، ولهذا قال: «**وأنَّ الله يَهدي من يشاء...**»، أي: أن أهل السُّنَّة يعتقدون أن الهدى بيد الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ومع هذا فلا حُجَّة للخلق؛ لأن الله جَلَّوَعَلَا أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب وأمرهم بالشيء الذي يستطيعون فِعْله، ولم يكلِّفْهم بالشيء الذي لا يستطيعونه، فمن فعل ذلك فهو فضل من الله جَلَّوَعَلَا منَّ به عليه فيجب أن يحمد الله ويشكره، ومن لا فهو عدله، وهو جَلَّوَعَلَا لا يظلم أحدًا، وإنما يمنع فضله من يشاء، فهو يضع فضله في مواضعه، وهو أعلمُ حيث يجعلُ رسالاته جَلَّوَعَلَا، كما أنه يعلم من يستحق الهدى فيهديه، ومن لا يستحق ذلك وليس أهلًا له، فيمنعه فضله، وهذا ليس ظُلمًا.

وقوله: «وقال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]».

بإعادة الأبدان وإحياء الموتى بعد أن يكونوا ترابًا، فهو يعيدهم كما كانوا حتى يجزيهم بما أخبر به جَلَّوَعَلَا من الجنة والنار.

وقوله: وقال: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠]».

الذين حقَّ عليهم الضلالةُ هم الذين مُنعوا فضل الله تعالى، وليس هذا ظلمًا وإنما ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ويمنعه عمَّن يشاء.



[قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ**]: «وقال:** ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، **وقال:** ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢]، **ومعنى** ﴿نَّبْرَأَهَا﴾ **نخلُقَها بلا خلافٍ في اللغة».**

الشرح:

قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]، أي: أنهم لا يفهمون الشيء الذي ينفعهم في الآخرة، وفي الدنيا من الإيمان بالله واتباع الرسل.

وكذلك لا يبصرون البصَرَ الذي أُمِروا به، وإنما يبصرون بصر الحيوانات، فيكونون أيضًا عالِمين بأمور الدنيا.

وكذلك السمع؛ لا يسمعون ما ينفعهم سمعَ وَعيٍ وإدراكٍ وعَمَلٍ، لكن يسمعون الشيء الذي لا ينفع.

وقوله: ومعنى: ﴿نَّبْرَأَهَا﴾ **نخلُقَها بلا خلافٍ في اللغة.**

فسَّر قوله ﴿نَّبْرَأَهَا﴾ بقوله: «**نخلُقَها**»، أي: أن هذا التقدير والكتابة سبَقا وجود الخلقِ.



[قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ**]: «وقال مخبرًا عن أهل الجنة:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ **[الأعراف: ٤٣].**

وقال: ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ **[الرعد: ٣١].**

وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ **[هود: ١١٨-١١٩].**

ويقولون: إنَّ الخير والشرَّ والحلو والمرَّ، بقضاء من الله عَزَّوَجَلَّ**، أمضاه وقدَّره، لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا إلا ما شاء الله.**

الشرح:

قوله: «وقال مخبرًا عن أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ **[الأعراف: ٤٣]».**

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى مخبرًا عمَّا يجب اعتقاده.

وهذا القول يقوله أهل الجنة عندما يدخلون الجنة، ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، أي: أن الهدى بيد الله، يهدي من يشاء كما أنه سبحانه يُضِل من يشاء، تعالى وتقدس، وهذا من مُلكِه تعالى وتقدس، فهو يملك كل شيء، ويتصرف كيف يشاء، ولكنه حكيم عليم تعالى وتقدس، يضع الهدى في مواضعه التي هي مواضعه، ويمنعه المواضعَ التي ليست أهلًا له، فالله جَلَّوَعَلَا لا يعذب أحدًا إلا بعمله.

وقد ثبت في حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: حدثنا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو الصادق المصدوق، «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ، وَأَجَلُهُ، وَرِزْقُهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ»[(١)].

أي: أن دخول الجنة والنار يكون بالعمل، والعمل هو الذي يعمله الإنسان باختياره وقدرته ليس مجبراً ولا مقهورًا عليه.

اشتهر عند الناس قول هل نحن مخيَّرون أو مسيَّرون؟

وهذا كلام مجمَل لا يجوز إطلاقه هكذا، مخيَّر أو مسيَّر؛ لأننا عِباد لسنا مخيَّرين -بمعنى أن نختار أو أن نفعل ما نختار-، وكذلك لسنا مُسيَّرين - بمعنى أننا لا قدرة لنا ولا اختيار-، بل العبد له قدرة واختيار يستطيع أن

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته (٤/ ١٣٣) برقم (٣٣٣٢)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٤/ ٢٠٣٦) برقم (٢٦٤٣).

يفعل بها الشيء الذي أُمر به، ويستطيع أن ينكفَّ وينتهي عن الشيء الذي نُهي عنه، وبذلك يستحق الثواب والعقاب.

وقوله: **«ويقولون: إنَّ الخير والشرَّ والحلو والمرَّ، بقضاء من الله** عَزَّوَجَلَّ، **أمضاه وقدَّره، لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا إلا ما شاء الله»**.

أي: أن المُلْك كله لله بما فيه من المخلوقين سواءً كانوا مكلفين أو غير مكلَّفين، وأنه لا يقع في الكون شيء إلا ما قدره الله جَلَّوَعَلَا وأراده، سواء كان خيرًا أو شرًّا.

والشر في الواقع نسبي وليس مطلقًا.

ومعنى كونه «نسبيًّا»، أي: أن الشر يكون شرًّا بالنسبة للمخلوق، أما بالنسبة للخالق جَلَّوَعَلَا فلا يجوز أن يضاف إليه الشر، تنزيهًا له وأدبًا معه تعالى وتقدس.

وقد جاء ذكر الشر في كتاب الله جَلَّوَعَلَا على **ثلاثة أقسام**:

القسم الأول: أن يُحذَف فاعله، كما في قول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ولما جاء الخير قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، ومن ذلك قول إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]؛ فأضاف المرضَ إلى نفسه والشفاءَ إلى ربه جَلَّوَعَلَا.

القسم الثاني: أن يدخل في العموم: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، فدخل في عموم خَلْقِ اللهِ جَلَّوَعَلَا.

القسم الثالث: أن يضاف إلى المخلوق، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢] أي: الذي خلقه.

ويقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثنائه على ربه إذا قام للتهجد: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»(١).

أي: أن الشر ليس إلى الله نسبةً، وإن كان الشر في حقيقة الأمر مخلوقًا له، فلا ينسب إليه؛ تأدُّبًا.

والشر الذي يقع للمخلوق هو خير بالنسبة إلى العدل، وإن كان ما يقع لبعض الناس يكون شرًّا إلا أنه شر نسبي وليس شرًّا على العموم.

ومثل ذلك الخير، فالله جَلَّ وَعَلَا له الفضل المطلق على عباده في الدنيا والآخرة، وكل نعمة تكون منه فضلًا وكرمًا بلا استحقاق؛ فالعباد لا يستحقون شيئًا على الله تعالى، وإنما يجزيهم بأعمالهم تعالى وتقدس.

وليس معنى قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ؟»، قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ؟»، قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ»(٢)

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (١/ ٥٣٤) برقم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته إلى توحيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى (٩/ ١١٤) برقم (٧٣٧٣)، ومسلم في «صحيحه»، =

أن هذا حق موجَب عليه، تعالى الله وتقدس، وإنما هو حق أحقه هو على نفسه تكرمًا وفضلًا، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۚ﴾ [الأنعام: ١٢].

أي: أنه لا يعذب من لا يشرك به شيئًا، كما فسره الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المقصود أن المسلمين يؤمنون بأقدار الله، وأنه لا يقع شيء إلا بتدبيره وكتابته الأزلية.

وقد عُرف أن **مراتب الإيمان بالقَدَر** أربع هي:

المرتبة الأولى: الإيمان بعلم الله الأزلي، أي: الإيمان بأنه محيط بكل شيء، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء تعالى وتقدس، وقد كان أهل البدع ينكرون هذا في أول الأمر، فلما علموا أنه كُفر رجعوا عن ذلك؛ لأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بيَّنوا أن هذا كفر بالله جَلَّ وَعَلَا، وأن من مات على ذلك تبرؤوا منه، كما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث يحيى بن يعمر يقول: كان أَوَّلَ منْ قالَ في الْقَدَرِ بالبصرَةِ مَعبَدٌ الجُهَنِيُّ، فانْطَلَقْتُ أنا وحُمَيْدُ بنُ عبدِالرَّحمنِ الحِمْيَرِيُّ حاجَّيْنِ -أو مُعتمرينِ- فقُلنا: لو لقِينَا أحدًا مَنْ أصحابِ رسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلْنَاهُ عمَّا يقُولُ هؤُلاءِ في الْقَدَرِ، فوُفِّقَ لنا عبداللهِ بن عُمرَ بنِ الخطَّابِ داخِلًا المسجِدَ، فَاكْتَنَفْتُهُ أنا

= في كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار (١/ ٥٨) برقم (٣٠).

وصاحِبِي أَحدُنَا عن يَمِينِهِ والآخَرُ عن شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صاحِبِي سَيَكِلُ الكلامَ إليَّ، فقُلتُ: أبا عبدالرَّحمنِ، إنَّه قد ظَهَرَ قِبَلَنَا ناسٌ يَقْرَؤُونَ القرآنَ، ويَتَقَفَّرُونَ العِلمَ، وذَكَرَ منْ شأْنِهِمْ، وأَنَّهُمْ يزْعُمُونَ أنْ لا قَدَرَ، وأنَّ الأَمْرَ أنُفٌ، قالَ: فإِذَا لَقِيتَ أولئكَ فأَخْبِرْهُمْ أَنِّي برِيءٌ منهم، وأَنَّهُمْ بُرآءُ منِّي، والذي يحلِفُ به عبدُاللهِ بن عمرَ لوْ أنَّ لأحدِهِمْ مثلَ أحُدٍ ذَهَبًا فأَنْفَقَهُ ما قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ. ثم روى حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ المشهور[(١)].

المقصود أن أول ما بدأ إنكار القدر كانوا ينكرون العلم ويقولون: الأمور ليست معلومة لله سابقًا، وإنما يعلمها إذا وقعت.

فهذا كفر بالله جَلَّ وَعَلَا؛ ولهذا قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ناظِروهم بالعلم؛ فإن أقرُّوا به خُصِموا، وإن أنكروه كَفَروا»[(٢)].

أي: علم الله جَلَّ وَعَلَا، هل كان وصفًا أزليًا له أو أنه استُحدِث؟ فمن قال إنه مُستحدَث فهو كفر.

المرتبة الثانية: كتابة الله جَلَّ وَعَلَا للأشياء قبل وجودها؛ فإن الله جَلَّ وَعَلَا عَلِم الأشياء قبل وجود الخلق، فكتبها في كتاب عنده، كما في «صحيح مسلم» من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: سمعت رسول الله

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»، في كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة (١/ ٣٦) برقم (٨).

(٢) «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (١٢/ ١٩٩)، و«قرة عيون الموحدين» (ص٢٤٤).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»(١).

وهذا يدلنا على أن المقصود بحديث عُبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي فيه: «إِنَّ أَوَّلَ ما خَلَقَ اللهُ القَلَمُ، ثُمَّ قالَ: اكْتُبْ فَجَرَى في تلْكَ السَّاعةِ بِما هُو كائِنٌ إلى يَوْمِ القِيامةِ»(٢) الإخبارُ عن كتابة القلم أنها وقعت بعد خلقه مباشرة.

وليس المقصود الإخبار بأوليَّة المخلوقات؛ لأن قوله هنا «وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» يدل على أن العرش والماء كانا موجودين قبل الكتابة، فلا يكون القلم أول المخلوقات كما قال بعض العلماء، وإنما يجب أن يكون متفقًا مع هذا الحديث: «إِنَّ أَوَّلَ ما خَلَقَ اللهُ القَلَمُ، ثُمَّ قالَ: اكْتُبْ»، تكون جملة واحدة، أي: أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد أن يخبر أن الكتابة وقعت بعد خلقه مباشرة بلا فاصل.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»، في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ (٤/ ٢٠٤٤) برقم (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٧/ ٣٧٨) برقم (٢٢٧٠٥)، وأبو داود في «سننه»، في كتاب السنة، باب في القدر (٤/ ٢٢٥) برقم (٤٧٠٠)، والترمذي في «سننه»، في كتاب القدر، باب ما جاء في الرضا بالقضاء (٤/ ٤٥٧) برقم (٢١٥٥) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المرتبة الثالثة: مشيئة الله؛ فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لا يكون، فكل شيء يقع فهو بمشيئة الله، حتى الأمور التي لا اختيار فيها، مثل: نبض العروق في البدن وحركتها، فهي مُقدَّرة ومكتوبة.

المرتبة الرابعة: خلق اللهِ؛ فهو الخالق وحده، وما سِواه مخلوق.

فإذا آمن العبد بهذه الأمور الأربعة فقد انتظم ذلك الإيمانَ بقَدَر الله جَلَّ وَعَلَا، وهو أمر لازم، وهو أحد أركان الإيمان الستة؛ ولهذا يقول: «**والإقرار بما التزمه وقَبِلَهُ عن الله...**»، الإقرار بما التزمه وقَبِله عن الله جَلَّ وَعَلَا فإنه أمر لازم.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «**وأنَّهم فقراءُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، لا غِنى لهم عنه في كل وقتٍ**».

الشرح:

وقوله: «وأنَّهم فقراءُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ».

أي: أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، وإنما يعملون حسَب ما أراده الله جَلَّوَعَلَا وشاءه، فمن عمل بالطاعة ممتثلًا أمر الله جَلَّوَعَلَا فهو المطلوب منه، وهو الذي يكون سعيدًا، ومن أبى ذلك وعمل بإرادته وهواه، فلن يُعجِز اللهَ وسوف يرجع إلى ربه فيجزيه؛ ولهذا قال: «**وأنَّهم فقراءُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ**»، أي: فقرًا ذاتيًّا، ومعنى فقرًا ذاتيًّا أي: أن الفقر ملازم لذواتهم، لا ينفكُّون عنه بحال من الأحوال، فالفقر وصف للمخلوق لا ينفك عنه بحال، والغنى وصف لله جل و علا ذاتي لازم له، فهو الغني ونحن الفقراء في كل شيء، فإذا لم يهْدِنا فلا نملك الهدى.

وقوله: «لا غِنى لهم عنه في كل وقتٍ».

أي: عن ربهم جَلَّوَعَلَا لا غنى لهم عنه في الدنيا ولا في الآخرة، في كل شيء، وفي كل وقت.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «وأنَّه عَزَّوَجَلَّ ينزلُ إلى السَّماء الدنيا على ما صحَّ به الخبر عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلا اعتقاد كَيْفٍ فيه».

الشرح:

وقوله: «وأنَّه عَزَّوَجَلَّ ينزلُ إلى السَّماء الدنيا على ما صحَّ به الخبر عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلا اعتقاد كَيْفٍ فيه».

المقصود: أنَّ عِلْمَ الكيف مرفوع عن الخلق.

وقد جاء النزول مقيدًا إلى السماء الدنيا، والمقصود بالسماء الدنيا القريبةُ من الأرض، والسماوات -كما هو معلوم- سبع طبقات، كل واحدة فوق الأخرى.

ويكون النزول في الليل، وقد جاء مبيَّنًا بغايةٍ أنه إذا بقي ثلث الليل الأخير نزل إلى طلوع الفجر، وقد أشكل هذا على كثير من الناس؛ لأنه إذا رأى اختلاف الأقطار أشكل عليه، يقول: إذا قلنا مثلًا: إنه ينزل آخر الليل لكل بلد، فمعنى ذلك أن النزول يستمر أربعًا وعشرين ساعة؛ لأن آخر الليل يدور في الأرض أربعًا وعشرين ساعة؛ إذا انتهى مِن عندنا وُجد عند الذين بعدنا في جهة الغرب، وهكذا، فالليل دائمًا يَطرُد النهار، والنهار يسبق الليل، وهكذا!.

هذا تصور خاطئ، والسبب في ذلك أن تصوُّر النزول عندهم كتصور النزول الذي يُعهَد من الخلق، وهذا لا يجوز.

النزول صفة لله خاصة به جَلَّ وَعَلَا، ولا يجوز أن يكون مثل نزول المخلوقين، حيث إنه إذا نزل من فوق الشيء صار ذلك الشيء فوقه.

ثم إن النزول الذي أخبر به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [(١)] يجب أن يكون على ظاهره، ولا يجوز تأويله، ولكن نقول: هو يختلف بالنسبة للخلق، وبالنسبة لربنا جَلَّ وَعَلَا لا يختلف فهو نزول واحد في آخر الليل وفي وقت مُعَيَّن، وإن كانت الأزمنة تختلف باختلاف الأمكنة ومن باب تقريب الفهم، **نقول**: هذا يشبه دعاء العباد له وعبادتهم إياه في كل مكان؛ فالأرض مملوءة بعباد الله، وهو جَلَّ وَعَلَا يستمع إليهم في آن واحد، ولا يَشغَله استماع هذا عن استماع ذاك، وهذا من صفة الله جَلَّ وَعَلَا الخاصة به. وشبيه بهذا أيضًا محاسبته جَلَّ وَعَلَا لخلقه؛ فهو يحاسبهم في آن واحد، وكل واحد يظن أنه يحاسَب وحده.

فهذا يدلنا على اختلاف أفعال الله عن أفعال المخلوقين، فلا يجوز أن نقيس أفعاله على أفعال الخلق؛ **ولهذا نقول**: هذا النزول على هذا المنوال

---

(١) إشارة إلى ما أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل (٢/ ٥٣) برقم (١١٤٥)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه (١/ ٥٢١) برقم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«ينزل ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له»**.

خاص بالله جَلَّ وَعَلَا، فيزول الإشكال الذي يستشكله بعض الناس في مثل هذه التصور الخاطئ، فهو نزول خاص بربنا جَلَّ وَعَلَا، فيجب أن نؤمن به ونصَدِّق به كما أخبرنا رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه لا يشبه نزول المخلوقين، تعالى الله وتقدس، والله فوق ما تتصوره العقول.

وقوله: «**بلا اعتقاد كيف**».

المقصود بهذا نفي علم الخلق عن الكيفية، فهذا لا طريق إليه.

وهذا ليس في النزول فقط، بل في جميع الصفات، أي: أن الكيفية غير معلومة ولكن المعنى معلوم، والكيفية غير المعنى، والكيفية -كما ذكرنا سابقًا- هي الحالة التي يكون عليها.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ويعتقدون جوازَ الرُّؤية من العِباد المتَّقين لله عَزَّوَجَلَّ في القيامة، دون الدنيا، ووجوبها لمن جعل الله ذلك ثوابًا له في الآخرة، كما قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

وقال في الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝﴾ [المطففين: ١٥]، فلو كان المؤمنون كلهم والكافرون كلهم لا يرونه كانوا بأجمعهم عنه محجُوبين.

وذلك من غير اعتقاد التجسيم في الله عَزَّوَجَلَّ، ولا التَّحديد له، ولكن يرونه جل وعز بأعينهم على ما يشاء هو بلا كَيْفٍ».

الشرح:

وقوله: **«ويعتقدون جوازَ الرُّؤية من العِباد المتَّقين لله عَزَّوَجَلَّ»**.

المتقي هو الذي يفعل المأمور ويجتنب المحظور، ولكن تقييد هذا بالمتقين قد يُخرج بعض المؤمنين من ذلك.

وقد يكون في تعبيره بالجواز تسامحا، وإنما المقصود بتعبيره بالجواز الوقوع، أي: أن رؤية الله واقعة، وقد تختلف التعبيرات عند بعض الناس؛ فقد يكون الجواز العقلي أو الجواز الشرعي.

ومعنى الجواز أنه قد يقع وقد لا يقع، وهذا ليس مقصود المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا واقع في الآخرة، ولابد منه؛ لأن الله أخبرنا به تعالى وتقدس، وأخبرنا به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد تكلم الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا بكلام بليغ جدًّا لو تكلَّف أبلغ الناس أن يأتي بمثله ما

استطاع، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -لما سُئل هل نرى ربنا يوم القيامة-: «**نَعَمْ، هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ ضَوْءٌ لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟**» قَالُوا: لَا. قَالَ: «**وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ ضَوْءٌ لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟**» قَالُوا: لَا. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا**»[١].

وفي رواية عند الإمام مسلم: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ؟ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟**» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «**مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا**»[٢]. فهذا كلام بليغ جدًّا، وتمثيل بالرؤية، وليس للمرئي، رؤية بالوضوح والبيان والتمكُّن من ذلك، وهذا يكون لأهل الجنة.

وكذلك يرون ربهم -كما قال شيخ الإسلام في رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى[٣]-: إنهم يرونه في عرَصات القيامة إذا جاء جَلَّ وَعَلَا لفصل القضاء؛ إذ يأتي ربنا جَلَّ وَعَلَا

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] (٦/ ٤٤) برقم (٤٥٨١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه»، في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١/ ١٦٧) برقم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) «العقيدة الواسطية» (ص: ٩١).

ليحكُمَ بين خلقه بنفسه، وقد جاء في حديث الشفاعة: «إذا كانَ يومُ القِيامةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كلُّ أُمَّةٍ ما كانت تَعْبُدُ، فلا يَبْقَى أَحَدٌ كان يَعْبُدُ غير اللهِ سبحانَهُ مِنَ الأَصنامِ والأَنْصَابِ إلا يتَسَاقَطُونَ في النَّارِ، حتَّى إذا لَمْ يبْقَ إلا منْ كان يَعْبُدُ الله مِنْ برٍّ وفاجرٍ وغُبَّرِ أَهلِ الكتابِ، فَيُدْعَى اليهُودُ، فيُقالُ لهُمْ: ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزيْرَ ابْنَ الله، فيُقالُ: كذَبْتُمْ ما اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صاحبَةٍ ولا ولَدٍ، فماذَا تَبْغُونَ؟ قالُوا: عَطِشْنَا يا ربَّنَا، فاسْقِنَا. فيُشَارُ إليهِم ألا تَرِدُونَ؟ فيُحْشرُونَ إلى النَّارِ كأَنَّهَا سرَابٌ يَحْطِمُ بعضُهَا بعْضًا، فيَتَسَاقَطُونَ في النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، فيُقالُ لهم: ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ المسِيحَ ابنَ الله، فيُقَالُ لهم، كذَبْتُمْ ما اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صاحِبَةٍ ولا ولَدٍ، فيُقَالُ لهُمْ: ماذا تَبْغُونَ؟ فيقُولُونَ: عطشْنَا يا ربَّنَا، فاسْقِنَا. قالَ: فَيُشَارُ إليهِم ألا ترِدُونَ؟ فيُحْشَرُونَ إلى جهنَّمَ كأَنَّهَا سرَابٌ يحطِمُ بعضُهَا بعضًا، فيتَسَاقَطُونَ في النَّارِ حتَّى إذا لم يَبْقَ إلا منْ كانَ يعْبُدُ اللهَ تعالَى مِنْ برٍّ وفاجِرٍ أتاهُمْ ربُّ العالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أَدْنَى صُورةٍ مِنَ التِي رأَوْهُ فيها قالَ: فما تنْتَظِرُونَ؟ ... إلى آخره[1].

المقصود أنه يكلمهم وهم يرونه، وقد اختُلف: هل يرى المنافقون ربهم؟

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] (٩/ ١٢٩) برقم (٧٤٣٩)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١/ ١٦٧) برقم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الصحيح أنهم يرونه في الموقف، ولكنْ رؤيةِ عذاب وحسرة وتأسُّف؛ ولهذا يُمنعون السجود، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ۝﴾ [القلم: ٤٢ - ٤٣]، أي: في الدنيا.

فالمقصود أن الرؤية -رؤية المؤمنين لربهم جَلَّوَعَلَا- واقعة في الآخرة في الموقف وفي الجنة، وهي أعلى نعيم الجنة.

وتختلف الرؤية في الجنة؛ فمنهم من يرى ربه بُكرة وعشيًّا، ومنهم من يراه في الأسبوع مرة واحدة كما جاء في حديث أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[1]: «أن يوم الجمعة يسمى في الجنة يوم المزيد، فإنهم ينظرون إلى ربهم، فإذا رجعوا إلى أزواجهم، قالوا: إنكم اِزددتم حسنًا وطيبًا، فيقولون: إنا رأينا ربنا»[2].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط حديث رقم (٢٠٨٤)، وقال المنذري: «رواته رواة الصحيح» (٤/ ٣١١)، والشافعي في «مسنده» (١/ ٧٠)، ورواه الدارقطني في الرؤية حديث رقم: (٥٩)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ: «بإسناد صحيح». «مجموع الفتاوى» (٦/ ٤٠٨).

(٢) عن أنس بن مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنه قال: «أَتَى جِبْرِيلُ بِمِرْآةٍ بَيْضَاءَ فِيهَا وَكْتَةٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَا هَذِهِ؟» قَالَ: هَذِهِ الْجُمُعَةُ فُضِّلْتَ بِهَا أَنْتَ وَأُمَّتُكَ، فَالنَّاسُ لَكُمْ فِيهَا تَبَعٌ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَلَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ، وَفِيهَا سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا مُؤْمِنٌ يَدْعُو اللهَ تَعَالَى بِخَيْرٍ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ، وَهُوَ عِنْدَنَا يَوْمُ الْمَزِيدِ. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: =

قال بعض شراح الحديث من المحققين: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشار إلى هذا عندما ذكر الرؤية في حديث جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَافْعَلُوا**»(١)، قالوا: هذا إشارة إلى أنَّ مَن حافظ على هاتين الصلاتين في وقتيهما سيُجزى رؤية الله جَلَّ وَعَلَا بُكرة وعشيًّا.

وقد قال الله جَلَّ وَعَلَا كما ذكر المؤلف هنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾، أي: من البهاء والحسن والجمال والنعيم، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، بأبصارها.

= «يَا جِبْرِيلُ، مَا يَوْمُ الْمَزِيدِ؟» قَالَ: إِنَّ رَبَّكَ اتَّخَذَ فِي الْفِرْدَوْسِ وَادِيًا أَفْيَحَ، فِيهِ كُثُبُ مِسْكٍ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ أَنْزَلَ اللهُ مَا شَاءَ مِنْ مَلَائِكَتِهِ وَحَوْلَهُ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ عَلَيْهَا مَقَاعِدُ النَّبِيِّينَ، وَحَفَّ تِلْكَ الْمَنَابِرَ بِمَنَابِرَ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةٍ بِالْيَاقُوتِ وَالزَّبَرْجَدِ عَلَيْهَا الشُّهَدَاءُ وَالصِّدِّيقُونَ، فَجَلَسُوا مِنْ وَرَائِهِمْ عَلَى تِلْكَ الْكُثُبِ فَيَقُولُ اللهُ لَهُمْ: أَنَا رَبُّكُمْ، قَدْ صَدَقْتُكُمْ وَعْدِي، فَسَلُونِي أُعْطِكُمْ. فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا نَسْأَلُكَ رِضْوَانَكَ، فَيَقُولُ: قَدْ رَضِيتُ عَنْكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مَا تَمَنَّيْتُمْ، وَلَدَيَّ مَزِيدٌ. فَهُمْ يُحِبُّونَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِمَا يُعْطِيهِمْ فِيهِ رَبُّهُمْ مِنَ الْخَيْرِ...» الحديث. «مسند الشافعي» (١/ ٧٠).

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] (٩/ ١٢٧) برقم (٧٤٣٤)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، والمحافظة عليهما (١/ ٤٣٩) برقم (٦٣٣).

وقد تكلَّف بعض من فسروا القرآن -وهم ليسوا على مذهب أهل السُّنَّة- في تحريف كلام الله فقالوا: ناظرة إلى الجزاء، وإلى ثواب الله جَلَّ وَعَلَا[(١)]. وهو كلام خاطئ.

وقوله: «وقال في الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ **[المطففين: ١٥]»**.

التنوين في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تنوين عوض عن شيء محذوف، وهو يوم القيامة المشار إليه.

يقول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما حَجَب الفُجَّارَ إلا وقدْ عَلم أنَّ الأَبرارَ يَرَوْنَهُ عَزَّوَجَلَّ»[(٢)].

والأدلة في هذا كثيرة، ولكن يبقى: ما الذي دعا إلى نفي الرؤية مع وضوح النصوص وظهورها لاسيما أحاديث الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فهل يتعمَّد المسلم -الذي يعرف أنه سيرجع إلى ربه وأنه يحاسبه- معصيةَ الله ومعصية الرسول؟

إن من يؤمن بالله ويعلم أنه ملاقيه لا يفعل ذلك، ولكن هناك شُبَه تقوم أمام الإنسان فيحاول أن يجمع بين الدليل الذي يزعم أنه الدليل البرهاني والعقلي، وبين الدليل الشرعي، فيأتي بمعنًى آخرَ بعيد جداً للأحاديث أو الآيات، وإن كان بعضهم يرد الأحاديث، ويقول: ما دام الحديث لم يتواتر فلا نقبله.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٠٨).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٠).

وهذا مذهب المتكلمين، فهم يقولون: لا يُقبَل في الأصول إلا المتواتر، وأما الفروع فلا بأس.

أما أهل السُّنَّة فلا فرق عندهم بين الأصول والفروع، فإذا صح الحديث وجب قبوله، سواء كان في الفروع أو الأصول.

نقول: إن الشُّبَه التي قامت عندهم هي اعتقادهم أن الرؤية تؤدي إلى الكفر!

أي: أن من اعتقد مثل هذا يجب عليه أن يتخلص من ذلك.

يقول المعتزلة والأشاعرة: لا بد أن تقع الرؤية على جسم.

أي: أنه إذا لم يكن أمامك شيء يصطدم به نظرك عندما تنظر فلن ترى شيئًا أبدًا؛ إذ لا بد أن يكون أمامك جسم يصطدم به النظر حتى ترى.

ولهذا نسمع الكفار الآن يقولون: إنهم إذا طاروا بعيدًا عن الأرض انعدمت الرؤية. ويرجع ذلك إلى أن السماء بعيدة جدًّا، لا إلى ما يقولونه من أن السماء عبارة عن فضاء وأن الكواكب تسبح في الفضاء؛ فهذا تكذيب لكلام الله جَلَّ وَعَلَا؛ إذ يقول في كتابه الحكيم: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ [ق: ٦]، فهي مبنية، وهي التي نشاهدها، ولكن إذا ذهب تأثير الأرض تنعدم الرؤية للبعد الشاسع.

المقصود أنهم قالوا: إن الرؤية لا تقع إلا على جسم، فإذا أثبتنا الرؤية لله

حكمنا بأنه جسم، والحكم بأنه جسم يكون كُفرًا، هذه من أكبر الشُّبَه عندهم!

فيقال: إن الله جَلَّوَعَلَا أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وليس الله معنًى حتى يقع عليه نظر، فالله جَلَّوَعَلَا له العظمة وله الكِبرياء، وقد أخبرنا أنه جَلَّوَعَلَا يطوي السماوات والأرض بيده تعالى وتقدس.

فقولهم: إنه جسم كلام مجمل لا يجوز قبوله ولا رده؛ لأنهم يختلفون أيضًا في تعريف الجسم؛ **فمنهم من يقول**: الجسم ما كان شاغلًا لمكان، فكل ما شغل مكانًا فهو جسم.

ومنهم من يقول: الجسم ما صحَّ أن يكون هنا وهناك وفوق وتحت؛ ولهذا ينفون هذا عن الله جَلَّوَعَلَا.

ومنهم من يقول: الجسم ما صحت الإشارة إليه؛ ولهذا هم لا يجوِّزون الإشارة إلى الله.

ومنهم من يقول: الجسم ما صح أن يقال أين هو؟ وقد صح هذا عن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما سأل الجارية، فقال: «**أَيْنَ اللهُ؟**» الجواب: أنه في السماء[1]. أي: في العلو.

ومنهم من يقول: الجسم هو البدن.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته (١/ ٣٨١) برقم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ.

هذا هو **الصحيح** في تعريف الجسم؛ أنه ما يتكوَّن من لحم ودم وعظام، والله جَلَّ وَعَلَا منزَّه عن هذه الأشياء؛ لأن الله ليس كمثله شيء.

واعتقادهم أن هذا أصله تشبيهٌ ارتسم في أذهانهم، فأرادوا أن ينفوا عنه هذه الأشياء.

وعلى كل حال يجب ألا يُقبَل منهم قولهم: إنه جسم أو ليس بجسم، ولا يرد عليهم؛ لأنهم إذا كانوا فسروه بما تصح إليه الإشارة، **قلنا**: إن الله جَلَّ وَعَلَا يُشار إليه، وإذا فسروه بأنه ما يشغل مكانًا **نقول**: إن الله فوق خلقه مستوٍ على عرشه، فلا بد من التفصيل في هذا.

وقوله: «وذلك من غير اعتقاد التّجسيم في الله عَزَّوَجَلَّ».

هذا من كلام أهل البدع، لا يجوز أن يقال مثل هذا، ولكن يجب أن نحمل كلامه هذا على أنه يقصد نفي التشبيه، أي: اعتقاد قول المشَبَّهة الذين يُشَبِّهون الله جَلَّ وَعَلَا بخلقه، وقد ثبت عن أهل العلم أنهم يقولون: التشبيه هو أن يقال: أن يده مثل أيدينا، ووجهه مثل وجوهنا وما أشبه ذلك، أما أن تثبت له الصفات فهذا ليس بتشبيه.

وقوله: «ولا التَّحديد له».

يجب أيضًا أن نقف عند التحديد، وأن نفصِّلَ المقصود بالتحديد؛ هل تحديد يحدُّه العباد ويكون محدودًا معلومًا؟! فهذا لا يجوز، أم أنه تحديد له حد بأنه بائن من خلقه ليس مختلطًا فيهم؟!

نقول: نعم، الله كذلك، وقد جاء هذا عن الأئمة، مثل ما ثبت عن عبدالله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قيل له: كيف نعرف ربنا؟ قال: نعرفه بأنه مستوٍ على عرشه. قيل له: بِحَدٍّ؟ قال: نعم بِحَدٍّ. ولما بلغ ذلك الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: هو كذلك عندنا(١).

واستدل على هذا بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ومعنى ذلك أن الحدَّ يُقصَد به أنه بائن من خَلْقِه، وأنه عالٍ على خلقه تعالى وتقدس، وليس مختلطًا بهم.

أما نفي الحد مطلقـًا فلم يرد عن السلف.

المقصود أن معنى قول: «بِحَدٍّ» محمول على نفي معنى يعلمه العباد لا نفي الحد مطلقا؛ إذ أن علم العباد به ممتنع.

وقوله: «**ولكن يرونه جل وعز بأعينهم على ما يشاء هو بلا كَيْفٍ**».

من المعلوم أن الذي يُرى لا بد أن يكون في المقابل؛ ولهذا الأشعرية يُثبتون رؤيةً غير معقولة، يقولون: إن الله يُرى.

فقال لهم المعتزلة: من أين يُرى؟

فقالوا: لا من جهة.

أي: أن الرؤية لا حقيقة لها؛ ولهذا آل أمرهم إلى أن الرؤية زيادة علم، وأن الناس محجوبون، فإذا رُفع الحجاب رأوا.

---

(١) «العرش» للذهبي (١/ ٢٥٢).

وقد يكون هذا في الدنيا.

والعجيب أن منهم من ألَّف في هذه المسألة مثل أبي شامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وآخر أمره أنه أوَّلَ الرؤيةَ بزيادة العلم؛ لأنه على مذهب الأشعرية، وهو لا يستطيع أن يتخلص منه.

فهذه مسائل فوق العقل، ويجب أن يُسَلِّمَ لها العقل، مع أنها ليست أمرًا غير معقول، فالعقل لا يُحيلُها؛ ولهذا يؤمن به عوامُّ المؤمنين، فهم يعلمون أن الله جَلَّ وَعَلَا فوق، ولكن كُتُب الفلسفة وكتب الكلام التي تعتني بالشُّبَه وتنَمِّيها هي التي تزيد الإنسان عمىً وبعدًا عن الحق؛ فمن تشبَّع بهذا لم يستطع أن يتخلص منه كما هو الواقع.

وهؤلاء يحارون في نهاية أمرهم؛ لأن الحق الظاهر الذي جاءت به النصوص أصبح يقابل عندهم الباطل الذي زعموا أنه براهين عقلية، فلا يدري ما يختار. **هذا هو الأمر الأول.**

الأمر الثاني: أن كل فريق من أهل البدع لديه حجج يسميها براهين، وكل واحد يردُّ على الآخر، فتصبح براهينهم متقابلة ومتكافئة، فيحتارون.

وقد تكلموا عن أنفسهم كما أخبر عنهم شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فابن واصل الحموي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يقول: «كنت أضع الملحفة على وجهي وأفكر في أدلة القوم، فيأتي الصباح ولم يتبين لي شيء»[١].

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ١٦٥).

كما حار الجويني في «النهاية»، وأخيرًا كتب كتابه الذي يسمونه «العقيدة النظامية» في مذهب التفويض. والتفويض شر من التأويل.

وكذلك الفخر الرازي، فقد أخبر عن نفسه أنه كان كثير العلوم، وكثير التأليف، وهو عمدة المتأخرين الآن من الأشاعرة؛ من يعتمدون على كلامه وعلى كُتُبِه، وذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه ألف كتابًا سماه «أقسام اللذات» فقال في لذة العلم:

وأرواحنا في وحشةٍ من جسومِنا   وحاصِلُ دنيانا أذى ووَبالُ
ولم نستفِدْ من بحثِنا طُولَ عُمرِنا   سوى أن جمعنا فيه قيلَ وقالوا[(١)]

وكذلك قال شمس الدين الخُسْرَوْشَاهِيُّ، وكان من أجل تلامذة فخر الدين الرازي، وقد دخل عليه في مجلسه وهو مستغرق في التفكير، يقول فسَلَّم، فلم يردَّ عليه السلام، ثم أعاد عليه السلام مرة أخرى فلم يردَّ عليه، ثم أعاد الثالثة فلم يردَّ عليه! فقال في نفسه: لابد أنه دُهِيَ في عقله. فأراد أن ينصرف، فتنبه له وقال: يا فلان، ماذا تعتقد؟ فضحك، وقال: أعتقد ما يعتقده المسلمون، فقال: وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به؟ فقال: نعم، فأطرق وصار يبكي ويقول: لكني والله ما أدري ما أعتقد[(٢)].

---

(١) «طبقات السبكي» (٨/ ٩٦)، و«عيون الأنباء» (٢/ ٨٢)، و«النبوات» لابن تيمية (١/ ٤٠٧، ٤٠٨).

(٢) «شرح الطحاوية» (ص: ١٧٨).

وهذا جزاء من أعرض عن كتاب الله جَلَّ وَعَلَا وعن سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فهو يحار ولا ينتبه من عقله ولا فكره.

فالمقصود أن الشُّبَه التي تكون عندهم من هذا الباب يرون أنها براهين، وهي في الواقع أوهام وشكوك، فالبرهان في كلام الله جَلَّ وَعَلَا وكلام رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وسنسوق مثالًا لتوضيح كلامنا.

فنقول: اختلف رجلان في بعض المسائل، فاستدل أحدهما بقول الله جَلَّ وَعَلَا وقول رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

واستدل الآخر بالعقل والفكر وما يسميه برهانًا، ثم ماتا على هذا، فاجتمعا بين يدي الله جَلَّ وَعَلَا.

أيهما يكون أعذر عند الله؛ من يقول: استدللت بقول الله وقول رسوله.

أو من استدل بفكره وعقله؟!

هذا الأمر واضح، ويجب أن يُتنبه إليه.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ويقولون: إنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ ومعرفةٌ، يزيدُ بالطاعة وينقصُ بالمعصية، ومَن كثرت طاعته أَزْيَدُ إيمانًا ممَّن هو دونه في الطاعة».

الشرح:

قوله: «ويقولون: إنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ ومعرفةٌ...» هذا كله تعريف للإيمان عنده؛ **«قولٌ وعملٌ ومعرفةٌ، يزيدُ بالطاعة وينقصُ بالمعصية»**.

وقد عرَّفه بعض العلماء بقولهم: قول وعمل.

وهو صحيح؛ لأن كلمة «قول» يدخل فيها قول اللسان، وكذلك قول القلب.

ولكن هل للقلب قول؟ لا يلزم أن يكون له قول؛ لأن القلب له عمل لا شك فيه، ولكن هل له قول؟

نُفرِّقُ بين قول القلب وعمله:

قوله: الذي يعزم الأمر عليه ويعقد عليه علمه، ويصمم عليه.

وعمله مثل الخشية والخوف والرجاء، وما يتبع ذلك من الأمور التي هي أصل العمل.

ولو اكتفى المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: **«قولٌ وعملٌ»** لكفى في تعريف الإيمان؛ لأنه يدخل فيه عمل القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح.

هذا هو الإيمان عند أهل السُّنَّة، ومعنى هذا أن مجموع هذه الأشياء هو الإيمان، لا ما يقوله كثير من المعتزلة والأشعرية من أن الإيمان: هو التصديق، ويستدلون بقوله تعالى في قصة إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لما جاءوا إلى أبيهم يدَّعون أن الذئب أكله، يقولون: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]، أي: مُصَدِّقنا بقولنا. ولن يؤمن لهم؛ لأنه يعلم أن يوسف حي، ولم يأكله الذئب، وأنه سوف يبقى وسوف يتم الله عليه نعمته، كما أخبره بالرؤية السابقة، بقوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾ [يوسف: ٤ - ٥]، هذا ظاهِرُ الرؤيا، وأخيرًا قال له: ﴿يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، أي: هذه حقيقتها لما سجدوا له، وصارت الشمس والقمر أبويه، والكواكب إخوته.

فالمقصود أنهم استدلوا بهذا على الإيمان، فقالوا: إن الإيمان في اللغة هو التصديق بدليل هذه الآية، والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يغير لغة العرب، والقرآن نزل بها، فيكون الإيمان في الشرع هو التصديق، والتصديق هو تصديق القلب، ليس تصديق الجوارح.

فما الجواب عن هذا؟

نقول: جاء الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإيمان، وأمر الناس أن يقولوا: لا إله إلا الله، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا**

الله»(١). فهل قول: لا إله إلا الله مجرد تصديق القلب؟

لابد في قول: لا إله إلا الله من اعتقاد ومن عمل، فكيف يقول: لا إله إلا الله ويعبد اللات والعزى؟!

هذا لا يمكن أن يكون أبدًا، ولا يمكن أن يكون قولًا صحيحًا، فبيَّن هذا أن قول: لا إله إلا الله يدل على أنه لابد من عمل القلب وعمل الجوارح.

وكذلك الأعمال الأخرى التي جاء بها المصطفى صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وقد جاء بالصلاة والصوم والزكاة والحج وغيرها من الأعمال التي يذكرها ويوجبها على عباده، ففي «المسند» وغيره عن بشير بن الخصاصية قال: أتيْتُ النَّبيَّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأبايِعهُ، قالَ: فاشْتَرَطَ عليَّ شهَادةَ أنْ لا إله إلا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا عبدُهُ ورسُولُهُ، وأنْ أُقيمَ الصَّلاةَ، وأنْ أؤدِّيَ الزَّكاةَ، وأنْ أَحُجَّ حجَّةَ الإسلامِ، وأنْ أصُومَ شهرَ رمضَانَ، وأنْ أُجاهِدَ في سبِيلِ اللهِ. فقُلْتُ: يا رسُولَ اللهِ، أمَّا اثْنَتَانِ فواللهِ ما أطِيقُهُما: الجهادُ والصَّدقةُ؛ فإنَّهُمْ زعمُوا أنَّهُ منْ ولَّى الدُّبُرَ فقدْ باءَ بِغضبٍ منَ اللهِ، فأخافُ إنْ حضرْتُ تلْكَ جشِعَتْ نفسِي، وكرِهتِ الموْتَ، والصَّدقةُ فواللهِ ما لِي إلا غُنَيْمةٌ وعشْرُ ذَوْدٍ، هُنَّ رسلُ أهلِي وحمُولتُهُمْ. قالَ: فقَبَضَ رسُولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يدَهُ،

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة (٢/ ١٠٥) برقم (١٣٩٩)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله (١/ ٥١) برقم (٢٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

ثُمَّ حرَّكَ يدَهُ، ثُمَّ قالَ: «فلا جهادَ ولا صدَقَةَ، فبِمَ تدْخُلُ الجنَّةَ إذًا؟» قالَ: قُلتُ: يا رسُولَ اللهِ، أنا أُبايِعُكَ. قالَ: فبايَعْتُهُ علَيْهِنَّ كُلِّهِنَّ[1]. هذا يدل على أنه أوجب الجهاد والصدقة، وقال: بمَ تدخل الجنة؟! لا صدقة ولا جهاد. هذا من الإيمان الذي جاء به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ويقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إلى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٨٤ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ﴾ [البقرة: ٨٤-٨٥] فقد جعل المفاداة إيمانًا، وجعل إخراجهم من بيوتهم وقتالهم كفرًا، وهذا عمل ظاهر.

وكذلك قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: صلاتكم إلى بيت المقدس؛ لما سألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٦/ ٢٨٤) برقم (٢١٩٥٢)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٢/ ٢٨) برقم (١١٢٦)، وفي «المعجم الكبير» (٢/ ٤٤) برقم (١٢٣٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٨٩) برقم (٢٤٢١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٣٥) برقم (١٧٧٩٦). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» (١/ ٤٢): «رواه أحمد، ورجاله موثقون».

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب الإيمان، باب: الصلاة من الإيمان (١/ ١٧) برقم (٤٠) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذا أدلته كثيرة لمن تأمل القرآن، ولا عذر لمن خالف في هذا، ولكن نعجب الآن من الكتابات التي تصدر عن بعض طلبة العلم؛ إذ يكتبون الرسائل في الجامعات ويشُكُّون في هذا الأمر ويترددون فيه، ويقول بعضهم: العمل شرط، أو العمل من اللازم، أو يأتون بأشياء عجيبة!

فكيف يكون شرطًا؟!

الشروط يجب أن تكون مقدَّمة على المشروط، ولا يكون العمل سابقًا.

فالمقصود أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا- وضَّح هذا الأمر إيضاحًا لا عذر لأحد في اعتراضه، وقد جاء متواترًا؛ لأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قبلوه وفهموه وعلموه، وكذلك مَن بعدهم، وهو الإيمان الذي جاء به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يجوز أن يكون فيه خلاف، وقد نص أهل السُّنَّة على هذا.

أما الإيمان عند المعتزلة والخوارج فهو العمل بكل ما أوجبه الله، واجتناب كل ما حرمه الله، وإذا أخل به العبد لا يكون مؤمنًا.

وهذا غلو، والظاهر أنه نتج هذا الغلو عن مذهب المُرجِئة الذين قالوا: إن الإيمان مجرد التصديق؛ تصديق القلب وقول اللسان، أما معرفة القلب فقط فيذكرونها عن غلاة المرجئة الذين هم الجَهميَّة، وكثير من العلماء يُكَفِّرهم بهذا، يقول: الكفار كلهم يعرفون صدق الرسل؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا أيَّدهم بمعجزات، كما قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا**

أَوْحَاه اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١]. أي: أُعطوا آيات باهرةً بيِّنة عرفها أقوامهم لكنهم جحدوا.

وهذا التحدي من الأنبياء لأقوامهم؛ جاء في نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجاء في محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاء في سائر الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، لكن كما أخبر الصادق المصدوق أن: «**كل نبي أعطاه الله ما على مثله آمن البشر**»[٢].

قوله: «يزيدُ بالطاعة وينقصُ بالمعصية».

أي: أن الإيمان يتفاوت، وهذا لا يقوله أهل البدع، فالإيمان شيء واحد عندهم لا يزيد ولا ينقص؛ ولهذا يقولون: الناس فيه سواء.

وهذا باطل، فأهل الجنة -كما هو معلوم- تفاوت درجاتهم، فمنهم من يكون في عِلِّيين، ومنهم من يكون في درجات دون، وفي «صحيح البخاري» عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**»[٣] أي: مائة جنة

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب فضائل القرآن، باب: كيف نزل الوحي، وأول ما نزل (٦/ ١٨٢) برقم (٤٩٨١)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته (١/ ١٣٤) برقم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب التوحيد، باب: وكان عرشه على الماء (٩/ ١٢٥) برقم (٧٤٢٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ومنزلة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين الدرجة والأخرى مثل ما بين السماء والأرض، فما السبب؟

السبب هو التفاوت في الإيمان وفي العمل، وهو دليل على زيادة الإيمان ونقصه، وأن الناس يتفاوتون فيه تفاوتًا حقيقيًا، وفي «الصحيحين» أيضًا قوله ﷺ: «**إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ، مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ. قَالَ: «**بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ**»[1]. فلا بد أن هذا يرجع إلى تفاوتهم في الإيمان.

والمقصود أن قوله: «ويقولون: إنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ ومعرفةٌ، يزيدُ بالطاعة وينقصُ بالمعصية».

هذا كله تعريف الإيمان بالله، وقد عرَّفه أكثر أهل السُّنَّة بأنه قول وعمل، ولكن لما كان قول القلب داخلًا في القول، وكان عمل القلب داخلًا في العمل؛ صار في هذا شيء من الغموض عند بعض الناس، فأرادوا بهذا

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٤/ ١١٩) برقم (٣٢٥٦)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، كما يرى الكوكب في السماء (٤/ ٢١٧٧) برقم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

التفصيل أن يزيلوا الغموض. فالمقصود بالقول قول اللسان، فلا يدخل الإنسان في الإسلام إلا بقوله: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، ولو اعتقد صحة الإسلام وأن ما جاء به الرسول حق، فلابد من النطق، ولهذا يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قَالُوا: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ**»[(١)].

ويقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ١٣٦]، فهو أمر أن نقول: آمنا بالله وبرسوله، وبما أنزل الله جَلَّ وَعَلَا.

ثم إنهم يجعلون قول القلب أيضًا من القول؛ لأنهم يسمُّون الشيءَ الذي يَعقِد عليه القلبُ عَزْمَه ويصمِّم عليه قولًا، والأعمالَ التي تصدر منه -مثل: الخوف والرجاء والخشية والإنابة وغير ذلك- عملَ القلبِ، فيجعلون عمل القلب داخلًا في فعل الإيمان.

وأما العمل فكذلك يدخل فيه عمل القلب وعمل الجوارح، فعلى هذا يكفي أن نقول: إن الإيمان قول وعمل؛ لأن من المعلوم أن المقصود بالعمل كل قول أو كل عمل أمرنا به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس المقصود أنه كل عمل وقول مطلق كما قد يتوهم متوهم. ولهذا صار قوله: «إنَّ

---

(١) سبق تخريجه.

الإيمان قولٌ وعملٌ ومعرفةٌ...»، زيادة شرح وبيان فقط، والتعريف الذي اصطُلِح عليه ينبغي أن يكون جامعًا مانعًا، وإذا كان بأوجز عبارة فهو أولى، لكن قوله: «**معرفةٌ**»؛ لأن المعرفة فيها زيادة بيان، حتى يدخل فيه طاعة القلب وإذعانه.

وقوله: «**يزيدُ بالطاعة وينقصُ بالمعصية**»، فيه رد على الذين يقولون: إن الإيمان واحد لا يختلف، فأراد أن يبين أن هذا هو المقصود عند أهل السُّنَّة.

قوله: «**يزيدُ بالطاعة وينقصُ بالمعصية**» هذا فيه نصوص، وبعض أهل السُّنَّة يزيدون على هذا التعريف أيضًا، فيقولون: واتباع للسُّنَّة. ولا حاجة إلى قول هذا؛ لأنه شرح وبيان.

وقوله: «**ومَن كثرت طاعته أَزْيَدُ إيمانًا ممَّن هو دونه في الطاعة**».

هذا شرح لقوله: «**يزيدُ بالطاعة وينقصُ بالمعصية**». إذا كان يزيد بالطاعة فمعنى ذلك أن الطاعة جزء منه، وإذا كان ينقص بالمعصية فهو كذلك؛ لأن المعصية مخالَفةٌ للأمر وتركٌ للطاعة فيَنْقُص بها.

وقد جاءت زيادة الإيمان في نصوص كثيرة في القرآن، ولم يُنَصَّ على النقص في كتاب الله جَلَّوَعَلَا؛ لأنه يُفهَم من الآيات؛ لأن من الأمور المعقولة أن الشيء الذي يزيد قبل زيادته يكون ناقصًا، فالزيادة تتضمن القول بالنقص، وقد قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾

[المائدة: ٣]، وقد استدل البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الصحيح» على نقص الإيمان بهذه الآية[١].

ووجه الاستدلال: أنه قبل أن يكمل كان ناقصًا، ولا يعني كونه ناقصًا أن الصحابة الذين ماتوا في ذلك الوقت كان إيمانهم ناقصًا؛ لأن هذا ما كُلِّفوا به، وكذلك في النصوص كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً، يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ، ومن تاب تاب الله عليه**»[٢].

وقد جاء كذلك في «الصحيحين» قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النساء: «**مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ**»، قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَلَيْسَ شَهَادَةُ المَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟**» قُلْنَ: بَلَى. قَالَ: «**فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟**» قُلْنَ: بَلَى. قَالَ: «**فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا**»[٣].

---

(١) «صحيح البخاري» (١/ ١٧).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب الحدود، باب لا يشرب الخمر (٨/ ١٥٧) برقم (٦٧٧٢)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله (١/ ٧٦) برقم (٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم (١/ ٦٨) =

وليس معنى ذلك أنها تكون ملُومة، أو يكون عليها ذنب، ولكن المعنى ليس من يصلي كمن لا يصلي؛ فمن يصلي يكون أكثر حسنات وأزيد إيمانًا، ممن لا يصلى لعذر؛ كالمرأة في حال العذر التي لا يجوز لها أن تصلي ما دام لديها عذر، وهي لا تأثم بذلك، ولكن المقصود أن من يأتي بالعمل الأكثر يكون أكثر إيمانًا.

روي عن الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: أهاب أن أقول إن الإيمان ينقص[(١)]، وهو رَحِمَهُ اللَّهُ كان يتحرى النصوص ويجتهد في ذلك؛ إذ لم يأتِ نصٌّ صريح بذلك ولهذا توقف، وهي احدى الروايتين عنه؛ فقد قال بالزيادة والنقصان في الرواية الأخرى لَمَّا تبين له[(٢)].



= برقم (٣٠٤)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله، ككفر النعمة والحقوق (١/ ٨٧) برقم (٨٠) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) «إتحاف السادة المتقين» (٢/ ٢٥٦).

(٢) «الفتاوى» (٧/ ٥٠٦).

[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ويقولون: إنَّ أحداً من أهل التوحيد ومن يُصلي إلى قبلة المسلمين، لو ارتكب ذنبًا أو ذنوبًا كثيرة -صغائرَ أو كبائرَ- مع الإقامةِ على التوحيد لله، والإقرار بما التزمه وقَبِلَهُ عن الله، فإنَّه لا يكفر به، ويَرجُون له المغفرة، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]».

الشرح:

لا يخرج بذلك من الإيمان؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا يجوز أن يغفر له دون مؤاخذة؛ أي: دون عقاب؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فدخل في قوله: ﴿مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ كل ما عدا الشرك، فإنه تحت مشيئة الله جَلَّ وَعَلَا.

ومعنى ذلك إن شاء عفا عنه بلا عذاب، وإن شاء عذَّبه وأخذه بذنبه، ثم بعد ذلك يكون من أهل الجنة.

وهذا القول ردٌّ على المعتزلة والخوارج؛ لأن الخوارج يُكَفِّرون المسلم بارتكاب الكبيرة؛ فمن ارتكب كبيرة فهو كافر عندهم، وإذا مات على ذلك فهو في النار، ومن دخل النار عندهم لا يخرج منها؛ لقوله: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، ولكنهم كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يَقْرَءُونَ القُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ»**(١)، أي: أنه لا يدخل إلى قلوبهم ولا يفقهونه.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب فضائل القرآن، باب إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر به (٦/ ١٩٧) برقم (٥٠٥٨)، ومسلم في «صحيحه»، =

أما المعتزلة فهم يقولون: إن العبد إذا ارتكب كبيرة فإنه يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر، فيكون بمنزلة بين الإيمان والكفر، ثم يتَّفِقون مع الخوارج في الحكم الأخروي أنه يكون في الآخرة في النار، ومن دخل النار لا يخرج منها.

ومن العجيب أنهم يوجبون على الله هذا؛ فيقولون: يجب على الله أن يعاقب العاصي ويثيب المطيع!

وهذا ضلال وجرأة عظيمة على الله جَلَّ وَعَلَا، نسأل الله العافية.

والأدلة على هذا كثيرة، منها: أن امرأةً حبلى من الزنا جاءت إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: إني أصبت حدًّا فأقمه علي. فلما علم أنها حبلى قال: «**ارْجِعِي حَتَّى تَلِدِي**»؛ فجاءت إليه بعد الوضع فقال: «**اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ**». فلما فطمته جاءت به وفي يده كِسرة من خبز يأكلها، فأمر بها، فرُجِمت ثم صلَّى عليها[1]، ولو كانت كافرة ما صلَّى عليها.

ومن ذلك أيضًا: أن رجلًا من الصحابة كان يشرب الخمر فيؤتى به إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقيم عليه الحد، وفي مرة أُتي به فقال رجل: لعنه الله، ما

= في كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (٢/ ٧٤٣) برقم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»، في كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى (٣/ ١٣٢٣) برقم (١٦٩٥) من حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أكثَرَ ما يؤتى به! فقال: «لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ»[1]. فهذا لا يعني أن من ارتكب كبيرة قد ترك الإيمان وفارقه.

ولما قيل له: أتصلي عليها وقد زنت؟ قال: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ»[2]، وفي رواية: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ»[3].

ومنها: قصة السارق الذي قطعه، ولو كان كافرًا لقتله؛ لأن حكم المرتد القتل، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، والآية هنا في التائب، فمن تاب يُتاب عليه وإن كان مشركًا وكافرًا، والآية الأولى التي في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، لمن مات بلا توبة، والذي يموت بلا توبة إذا كان مشركًا فلا رجاء فيه، فهو من أهل النار، وإن كان غير مشرك فهو تحت مشيئة الله جَلَّوَعَلَا؛ إن شاء عفا عنه بلا

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر، وإنه ليس بخارج من الملة (٨/ ١٥٨) برقم (٦٧٨٠) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه»، في كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى (٣/ ١٣٢٤) برقم (١٦٩٦) من حديث عمران بن حصين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) سبق تخريجه.

عذاب، وإن شاء عذبه وأخذه بذنبه، ثم يكون من أهل الجنة.

وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أن أعدادًا كبيرة يدخلون النار من الموحِّدين ثم يخرجون منها؛ إما بالشفاعة وإما برحمة أرحم الراحمين، ويتفاوت بقاؤهم فيها حسَب ما عندهم من الكبائر.

أما الصغائر فهي تُكَفَّرُ باجتناب الكبائر كما جاء في الأحاديث الصحيحة، ويقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، فجعل اجتناب الكبائر مُكَفِّرًا للصغائر.

قيل: إن الكبائر هي كل ذنب رُتِّب عليه حد في الدنيا، أو رُتِّب عليه وعيد في الآخرة؛ إما في النار أو بالعذاب الأليم، أما العذاب المهين فلم يأتِ إلا في الكافرين.

أما ما جاء في وصفه بأنه ليس منا، أو أن ذمة الله منه بريئة أو ذمة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد جعلوا هذا دلائل حد الكبيرة، وما عدا ذلك فهو من الصغائر.

أما النصوص التي ورد فيها أن الكبائر سبع فلم يُقصد بها الحصر، بدليل أنه جاء غيرها كثير؛ ولهذا لما سُئل ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هل الكبائر سبع أو سبعون؟ قال هي إلى سبعين أقرب منها إلى سبع[(١)]، وما عدا هذا فهو من الصغائر.

---

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٦/ ١١١٠).

والصغائر تُكَفَّر بشرط عدم الإصرار عليها، أما الإصرار على الصغيرة فيُصَيِّرها كبيرة، وقد ثبت في حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، الذي في «الصحيحين» أنه قيل له: كيف سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في النجوى؟ قال سمعته يقول: «**يُدْنَى الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ** عَزَّ وَجَلَّ، **حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: أَيْ: رَبِّ أَعْرِفُ. قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ**»(١).

والنجوى تكون بين الاثنين -كما هو معلوم- خلاف الكلام الذي يكون ظاهرًا، فرحمة الله جَلَّ وَعَلَا واسعة، ولا يجوز للإنسان أن يُقْنِطَ الناسَ أو يسُدَّ عليهم باب الرجاء، ورحمة الله أوسع من غضبه جَلَّ وَعَلَا، ولكن لا ينبغي للإنسان أن يغتر، ويصر على الذنوب، ويتجرأ على الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأن الله عظيم وإن كان رحيمًا؛ لهذا يقول لنا جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

فيجب على الإنسان أن يحتاط لنفسه ويجتهد ما دام بإمكانه فعل ذلك في هذه الحياة.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب المظالم والغصب، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨] (٣/ ١٢٨) برقم (٢٤٤١)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الرقاق، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٤/ ٢١٢٠) برقم (٢٧٦٨) من حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ومن أركان العمل الذي يُرجى أن يُقبَلَ الرجاءُ والخوفُ؛ أن يكون الإنسان راجيًا خائفًا، والعلماء يرجِّحون أن الإنسان إذا كان في صحة وقوة فإنه يُغَلِّب الخوف؛ لأنه يمنعه من اقتراف الذنوب ويسوقه إلى فعل الطاعة، أما إذا كان في مرض وفي إقبال من الآخرة فينعكس الأمر، فيكون رجاؤه أغلب عليه من الخوف.

ومعنى الرجاء أنه يطالع أن رحمة الله واسعة، وأنه جَلَّ وَعَلَا غني عن تعذيبه، وأنه جَلَّ وَعَلَا غفور رحيم، فهو يرجو رحمة الله ويخاف من ذنوبه.



[قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ]: «واختلفوا في متعمِّدي ترك الصَّلاة المفروضة حتى يذهب وقتها من غير عُذرٍ، فكفَّره جماعةٌ؛ لما رُوي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ»[1].

وقوله: «مَنْ تَرَكَ الصَّلاةَ فَقَدْ كفر»[2].

و«من تركَ الصَّلاةَ فقد بَرِئَتْ منه ذِمَّةُ الله»[3]».

الشرح:

قوله: «واختلفوا في متعمِّدي ترك الصَّلاة المفروضة...» أكثرَ العلماءُ القولَ في تارك الصلاة سواء عمدًا أو سهوًا أو تناسيًا أو تساهلًا.

المتعمد أمره أكبر، هل يكون كافرًا إذا أصر على ذلك ومات عليه؟

أما إذا تاب فالتائب كمن لا ذنب له، والله جَلَّ وَعَلَا يحب التوابين، وقد جاء في «صحيح البخاري» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا -وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا- فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ -وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ- فَاغْفِرْ لِي. فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ**

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٢١٩)، رقم (٤٦٧٨)، وابن ماجه (٢/ ١٨١)، رقم (١٠٧٨)، والترمذي (٤/ ٣٠٩) رقم (٢٦٢٠).

(٢) صحيح ابن حبان (٤/ ٣٢٣)، رقم (١٤٦٣) بلفظه، أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٦)، والترمذي (٥/ ١٣)، رقم (٢٦٢١)، والنسائي (١/ ٢٣١) رقم (٤٦٣) بنحوه.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٣٩)، رقم (٤٠٣٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ١١٧) بنحوه.

وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ -أَوْ أَصَبْتُ- آخَرَ، فَاغْفِرْهُ؟ فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا -وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا- قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ -أَوْ قَالَ أَذْنَبْتُ- آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي. فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»(١).

وقوله: «فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»؛ أي: ما دُمْتَ تُذْنِبُ وتستغفرُ فإن الله يغفر لك.

وهذا قول رسول الهدى صلوات الله وسلامه عليه، ينشره في عباد الله حتى يعرفوه ويعتقدوه، فإذا تاب الإنسان من أي ذنبٍ كان؛ فإن الله يتوب عليه، وإن كانوا يقولون: إن هناك ذنوبًا لا توبة لها في الدنيا، أي: ليس فيما بين العبد وربه، أما ما بين العبد وربه فليس فيه شيء مستثنى أبدًا، ويذكرون مسبة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومثل ذلك مسبة الله جَلَّ وَعَلَا.

نقول: إذا وقع ذلك فلا تُقبَل توبته، ويجب أن يُقتَل على كل حال، ولكن إذا كان فيما بينه وبين ربه فهذا لا يمنعه أحد.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥] (٩/ ١٤٥) برقم (٧٥٠٧)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة (٤/ ٢١١٢) برقم (٢٧٥٨).

المقصود أن قوله: «واختلفوا في متعمِّدي ترك الصَّلاة المفروضة...».

أي: أن هذا الأمر مختَلف فيه؛ فجماعة كفروه، وجماعة أخرى لم يكفروه؛ كالشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومعه جماعة من كبار العلماء؛ إذ يرون أن ترك الصلاة ليس كفرًا.

والراجح أنه يكون كافرًا، وأنه لا فرق بين كونه يتركها عمدًا أو يتركها تساهلًا وكسلًا؛ للأحاديث التي صحَّت في هذا، ومنها قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ»[1]، وفي الحديث الآخر: «مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ فَقَدْ كفر»[2]، وفي الحديث الثالث: «من تركَ الصَّلاةَ فقد بَرِئَتْ منه ذِمَّةُ الله»[3]، وهناك أحاديث أُخرى غير هذه.

ويقولون: إن الكفر إذا جاء معرَّفًا كهذا الحديث: «بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ» فالمقصود به الكفر الحقيقي الذي يخرج من دين الإسلام، بخلاف ما إذا جاء منكَّرًا كقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ»[4]؛ لأن الإنسان قد

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه»، في كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة على الميت (١/ ٨٢) برقم (٦٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يكون فيه خصلة من خصال الكفر ولا يكون كافرًا، أو يكون فيه خصلتان، أو يكون فيه خصلة من خصال الجاهلية أو خصلتان أو أكثر ولا يكون من أهل الجاهلية، وقد يكون عنده خصلة من النفاق ولا يكون منافقًا؛ لأن النفاق قد يكون عمليًّا وقد يكون اعتقاديًّا؛ فأما الاعتقادي فهو ستة أنواع، ويكفي أن يكون عنده واحد من الأنواع الستة.

وأما العملي فهو خمسة أنواع، كما ذُكر ذلك في الأحاديث، ووضَّح ذلك العلماء في كتبهم الخاصة في هذه المسائل[1].



(١) «النفاق فنوعان: اعتقادي وعملي؛ **فأما الاعتقادي فهو ستة أنواع**: تكذيب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو تكذيب بعض ما جاء به الرسول، أو بغض الرسول، أو بغض ما جاء به الرسول، أو المسرة بانخفاض دين الرسول، أو الكراهية لانتصار دين الرسول، فهذه الأنواع الستة صاحبها من أهل الدرك الأسفل من النار».

وأما العملي فهو خمسة أنواع: والدليل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**آية المنافق ثلاث، إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمن خان، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر**».

نعوذ بالله من النفاق والشقاق وسوء الأدب. والله أعلم».اهـ. «مجموعة التوحيد» لشيخي الإسلام أحمد بن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُمَا اللَّهُ، (ص٧).

[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «وتأوَّل جماعةٌ منهم أنَّه يريدُ بذلك من تركها جاحدًا لها، كما قال يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٣٧]، **تركَ جُحودٍ».**

الشرح:

قوله: «وتأوَّل جماعةٌ منهم أنَّه يريدُ بذلك من تركها جاحدًا لها» هذا غير صحيح؛ لأنه لا فرق بين جحود الشيء الثابت عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ الصلاة أو غيرها، فإذا جحد شيئًا ثابتًا، ولو سُنَّةً عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنكره، فإنه يكون كافرًا.

قوله: «وكما قال سبحانه على لسان يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧]، **فقوله:** ﴿تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ لا يعني: جحدُتها، فهذا ليس ترك جحود، بل ترك اختيار؛ فقد تركها مختارًا وهو يعلم أنها كفر، وهذا هو الذي ينفع، ولا أدري كيف جاءت هذه العبارة! والظاهر أن هذا فيه سقط جعل الكلام بهذه الصورة.

والغالب أن المخطوطات إذا لم تُجمع ويقارَن بينها، لا بد أن يكون فيها خلل؛ لأن النُسَّاخ يعتريهم السهو والنسيان والترك، فقد يترك أسطرًا وكلمات كما هو معلوم؛ ولهذا كانوا يقولون: الكتاب الذي لا يُقابَل لا قيمة له؛ إذ لابد من المقابلات ولا بد من التأكد، يقول الخليل بن أحمد

رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا نُسِخ الكتابُ مرتين أو ثلاثًا أصبح أعجميًّا، فكيف إذا تداولته الأيدي كثيرًا؟!

فلابد من الاعتناء بذلك.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «وقال كثيرٌ منهم: إنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ، والإسلام فعلُ ما فُرِضَ على الإنسان أن يفعله، إذا ذُكر كلُّ اسمٍ على حِدَتِهِ مضمومًا إلى الآخر، فقيل المؤمنون والمسلمون جميعًا أو مفردَينِ، أُريد بأحدهما معنًى لم يُرد بالآخر، وإن ذُكر أحد الاسمين شملَ الكُلَّ وعمَّهم».

الشرح:

الظاهر أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يفرق بين الإيمان والإسلام، وهو الصحيح الذي عليه أكثر المحققين؛ لأن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سُئل عن ذلك جعل الإسلامَ الأعمالَ الظاهرة والإيمانَ الأمورَ الباطنة، كما في حديث جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[1]، ولكن إذا جاء أحدهما مفردًا دخل فيه الآخر.

وقوله: **«وقال كثيرٌ منهم: إنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ»**.

سبق الكلام على هذا التعريف وعلى زيادة من أنه نية، وأنه معرفة، وأنه يزيد بالطاعة ويَنقص بالمعصية، وكل هذا تفسير وإيضاح؛ لأنه قال: «إنَّ **الإيمان قولٌ وعملٌ...**».

وقوله: **«إذا ذُكر كلُّ اسمٍ على حِدَتِهِ مضمومًا إلى الآخر»**.

أي: الإسلام والإيمان مضمومًا إلى الآخر.

وقوله: **«فقيل المؤمنون والمسلمون جميعًا أو مفردين، أُريد بأحدهما معنًى لم يُرد بالآخر»**.

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

المعنى أنهما إذا اجتمعا افترقا في المعنى، وإذا افترقا اجتمعا؛ فإذا ذُكر الإيمان وحده دخل فيه الإسلام، وإذا ذكر الإسلام وحده دخل فيه الإيمان، أما إذا ذُكِرا جميعًا فيكون لكل واحد منهما معنًى.

وهذا هو القول الذي قصده شيخ الإسلام وغيره كما في كتاب الإيمان وغيره.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «وكثيرٌ منهم قالوا: الإسلامُ والإيمانُ واحدٌ، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، فلو أنَّ الإيمانَ غيره لم يُقبل منه.

وقال: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦]».

الشرح:

ولكنَّ الأكثر على خلاف هذا، وإن زعم بعضهم أن هذا هو مذهب أهل الحديث كما يقول محمد بن نصر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «تعظيم قدر الصلاة»: «هذا هو مذهب أهل الحديث ومُعظَم أهل السُّنَّة، على أن الإسلام هو الإيمان والإيمان هو الإسلام»[١]. ولكن ليس هذا صحيحًا؛ ولهذا ردَّ عليه ابن منده رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢] في «كتاب الإيمان»، وبيَّن أن جمهور أهل السُّنَّة على خلاف ذلك، وقد ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «كتاب الإيمان» كلامًا واضحًا[٣].

ومذهب البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الإيمان هو الإسلام ولا فرق بينهما،

---

(١) «تعظيم قدر الصلاة» لمحمد بن نصر المروزي (١/ ٣٤٤).

(٢) كتاب الإيمان لابن منده، عقد فيه بابًا: ذكر ما يدل على الفرق بين الإيمان والإسلام (١/ ١٢٠).

(٣) «الإيمان» لابن تيمية (ص: ١٢).

واستدلوا بقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦]، فالبيت هو المُخرَج.

ولكن الجواب عن هذا أن التفرقة جاءت في كتاب الله؛ فإن الله جَلَّ وَعَلَا حيث قال سبحانه: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤]؛ فرد عليهم هذا الشيء، أي: أنه لم يدخل بعدُ، والصحيح أن هذا ليس نفاقًا، كما قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنهم قالوا ذلك على وجه النفاق[1]، أي: أن الباطن على خلاف الظاهر، وهذا ليس صحيحًا؛ لأن هذا في الوفود الذين جاؤوا مسلمين؛ إذ لا يقال: إن وفدًا يأتي إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليُسلِمَ ثم يكون منافقًا، والآية تدل على خلاف ذلك.

وكذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ [التحريم: ٥]، هل هذا هو هذا؟ أو أن هذا وصف بموصوف واحد، لا يمكن أن يكون وصفًا لموصوف واحد؛ لأنه يختلف، فهذا من

---

(١) «صحيح البخاري» (١/ ١٤).

الأدلة على التفرقة بين الإسلام والإيمان، ومما رجَّح ذلك حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي في «صحيح مسلم»؛ فعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ؛ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ...ثُمَّ قَالَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»[1]. دل على أن هذا كله دين، فالدين إذًا يتفاوت، فهو مراتب، واحدة أعلى من الأخرى، وهذا ما عليه أهل السُّنَّة.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»، في كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة (١/ ٣٦) برقم (٨).

قوله: «**وقال:** ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٣٦﴾ [الذاريات: ٣٥ -٣٦]».

هذا الآية ليست دليلًا للذين يقولون: إن الإيمان والإسلام شيء واحد؛ لأن قوله ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دخل فيه ضيوفه وبناته فقط، وقوله: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ دخل معهم الزوجة، والزوجة ليست من أهل الإيمان، فهي مستسلمة منقادة لزوجها فقط ولكنها مخالِفة له في العقيدة.



[قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ]: «ومنهم من ذهب إلى أنَّ الإسلامَ مختصٌّ بالاستسلام لله والخضوع له، والانقيادِ لحُكْمِه فيما هو مؤمنٌ به، كما قال: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

وقال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧].

وهذا -أيضًا- دليلٌ لمن قال: هما واحدٌ».

الشرح:

وقوله: «ومنهم من ذهب إلى أنَّ الإسلامَ مختصٌّ بالاستسلام لله والخضوع له، والانقيادِ لحُكْمِه فيما هو مؤمنٌ به».

الاستسلام معناه: ألَّا يكونَ عنده أي اعتراض أو أي إباء، بل هو منقاد مطيع، دون توقف.

والخضوع يدخل فيه؛ ولهذا يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]. جاء بالمصدر ﴿تَسْلِيمًا﴾ ليدل على أنه لا يجوز أن يكون في صدره أي حرج من حُكم الله، فإن كان عنده شيء من التوقف، فلا ينطبق عليه هذا الوصف المذكور في الآية .

وقوله: كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

تأتي ﴿لَمَّا﴾ للشيء الذي قد بُدئ به ولم يكمل، أو أنه سيبدأ به، أي: أن الإيمان لم يتمكَّنْ بعدُ من قلوبكم؛ لأنكم في أول الأمر، فصارت الأعمال الظاهرة مثل القول، والصلاة إسلامًا، ومن المعلوم أن المسلم لابد له من إيمان، أي: هل يوجد إسلام بلا إيمان؟

نقول: لا، لا يوجد، لابد من إيمان؛ لأن الإيمان عمل القلب - كما سبق -، فلابد أن يكون في القلب إيمان، ولكن عمل القلب يأتي شيئًا فشيئًا، ولا يكمل إلا إذا تمكَّن الإيمان من ذلك الإنسان، وهذا معنى كون الإيمان يزيد ويَنقُص، وكون الناس يتفاوتون فيه.

وهذا أمر ظاهر، حتى الإنسان يجد ذلك من نفسه، فهو يجد في وقت من الأوقات كثرةَ رغبته وإقباله على الخير وحُبَّه لذلك، وفي وقت من الأوقات يجد غفلة وسهوًا، وقد يكون عنده شيء من الجفاء أو التعدي، وغير ذلك.

وقوله: **وقال تعالى:** ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [**الحجرات: ١٧**].

جعل هذا دليلًا على أن أحدهما هو الآخر، لكن الآية لا دليل فيها على ذلك؛ لأن قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ لا يلزم منه أن يكون الإيمان قد دخل في قلوبهم.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ويقولون: إنَّ الله يُخرج من النَّار قومًا من أهل التوحيد بشفاعة الشافعين وبرحمته».

الشرح:

قد أخبر الله جَلَّ وَعَلَا بها، ولكنها لا تكون إلا لأهل التوحيد.

والتوحيد هو الإخلاص لله جَلَّ وَعَلَا في الطاعة والعمل.

تقع الشفاعة من الأنبياء، ومن المؤمنين بعضهم لبعض، وتقع من الأطفال؛ فإذا مات للوالدين أطفال فإنهم يشفعون لهما كما ثبت ذلك، وفوق ذلك كله رحمة أرحم الراحمين.

وحقيقة الشفاعة هي إرادة الله جَلَّ وَعَلَا رحمةَ المشفوع له، وإظهار كرامة الشافع؛ إذ الشفاعة لله لا يملكها أحد غيره.

وقد توهم بعض الناس أن الشفاعة ملك لبعض عباد الله، وهذا توهُّم باطل، وقد بين الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لا يشفع رأسًا وإنما يسجد لله أولًا ويفتح الله عليه من المحامد والثناء، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لاَ تَحْضُرُنِي الآنَ**»، ثم يقول له الله جَلَّ وَعَلَا: «**يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ: يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**»[1]. قبل أن يقول له:

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] (٩/ ١٢١) برقم (٧٤١٠)، ورقم (٧٥١٠)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١/ ١٨٢) برقم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

«اشْفَعْ» ما يشفع لا هو -صلوات الله وسلامه عليه- ولا غيره، يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

فالإذن للشافع والرِّضا عن المشفوع له، والله لا يرضى إلا عن أهل التوحيد، أما المشرك فإن الله لا يرضى عنه.

والشفاعة في كتاب الله قسمان:

القسم الأول: شفاعة منفية لا وجود لها؛ وهي التي تُزعم أنها تقع ولو لم يأذن الله بها، وهذه هي أصل الشرك في العالَم إلى اليوم.

القسم الثاني: شفاعة مُثبَتة؛ وهي التي تكون بعد إذن الله، وإذنُ اللهِ أمرُه ورضاه عن المشفوع له.

وهي أقسام حسب النصوص التي جاءت؛ قسم منها مختص بنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي الشفاعة الكبرى التي تكون في الموقف، فإن الوقوف يطول جدًّا ويشتد، فإذا أراد الله جَلَّ وَعَلَا رحمتهم ألهمهم طلب الشفاعة، كما في «صحيح مسلم» عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَهْتَمُّونَ لِذَلِكَ -وَقَالَ ابْنُ عُبَيْدٍ: فَيُلْهَمُونَ لِذَلِكَ- فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا عَلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، قَالَ: فَيَأْتُونَ آدَمَ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فَيَقُولُونَ: أَنْتَ آدَمُ، أَبُو الْخَلْقِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ**

لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا، وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ»، قَالَ: «فَيَأْتُونَ نُوحًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا، وَلَكِنِ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي اتَّخَذَهُ اللهُ خَلِيلًا، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا، وَلَكِنِ ائْتُوا مُوسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاةَ، قَالَ: فَيَأْتُونَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا، وَلَكِنِ ائْتُوا عِيسَى رُوحَ اللهِ وَكَلِمَتَهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَى رُوحَ اللهِ وَكَلِمَتَهُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَلَكِنِ ائْتُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبْدًا قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ»، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَيَأْتُونِي فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، فَإِذَا أَنَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، قُلْ تُسْمَعْ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ رَبِّي، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ، وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَقَعُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي، ثُمَّ يُقَالُ: ارْفَعْ يَا مُحَمَّدُ، قُلْ تُسْمَعْ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ» -قَالَ: «فَلَا أَدْرِي فِي الثَّالِثَةِ أَوْ فِي الرَّابِعَةِ»- قَالَ: «فَأَقُولُ:

يَا رَبِّ، مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ، أَيْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ». قَالَ ابْنُ عُبَيْدٍ فِي رِوَايَتِهِ: قَالَ قَتَادَةُ: «أَيْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ»[1].

المقصود أنهم يُلهمون طلب الشفاعة، ولا يلزم أن يكون كلهم، يقول بعضهم لبعض من أولى بهذا من أبيكم آدم! خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته واسكنه جنته فيأتون إليه، فيطلبون منه ذلك، فيقول: لست هناكم، أنا أصبت ذنبًا -وإن كان الذنب قد تاب منه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له- ولكن الموقف حرج وصعب جداً، ولهذا يعتذر يقول: إنَّ ربِّي قد غَضِبَ اليومَ غضبًا لم يغْضَبْ قبلهُ مِثلَهُ، ولن يَغْضبَ بعدهُ مِثلهُ، وإني قد أصبت ذنبًا فاذهبوا إلى غيري، ثم يقول لهم: اذهبوا إلى نوح فإن الله سماه عبداً شكورًا، فيأتون نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ فيعتذر لما اعتذر آدم فيرسلهم إلى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فيعتذر كما اعتذر آدم ونوح فيرسلهم إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فيرسلهم إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فيعتذر، ثم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يرسلهم إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا شيء أراده الله جَلَّ وَعَلَا حتى يُظهر كرامة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فيأتون إليّ، فأقول: أنا لها، فأذهب إلى مكان تحت

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] (٩/ ١٢١) برقم (٧٤١٠)، ورقم (٧٥١٠)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١/ ١٨٠) برقم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

العرش فأخر ساجدًا لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ويفتح عليّ من المحامد والثناء مالا أحسنه الآن، جاء أنه يتركه قدر أسبوع ساجدًا، ثم يقول: **«يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»**[1].

هذا الحديث صار فيه إشكال كبير -بيّن شُرَّاح الحديث والعلماء-؛ لأنه لم يذكر هنا شفاعته في كشف الموقف وإنما ذكر أنه يذهب ويشفع فيمن دخل النار من أمته من أهل الكبائر ولكن الجواب أن السبب في هذا هو حديث عن أنس وغيره، أن الذين سألوه أرادوا الرد على الخوارج، والخوارج لا ينكرون الشفاعة الكبرى لا هم ولا المعتزلة، ولا ينكر أحد الشفاعة الكبرى؛ لأن الشفاعة الكبرى ليس فيها إخراج أحد من النار ولا إدخال أحد إلى الجنة، وإنما فيها طلب الفصل بين العباد؛ ولهذا لا ينكرونها، كما أنهم لا ينكرون الشفاعة في رفعة بعض منازل أهل الجنة، فالسبب أنهم تركوا هذا الشيء المعروف المتَّفق عليه وذهبوا إلى الشيء الذي فيه خلاف عن قصد، ومن هنا حدث الإشكال، **فهذه الشفاعة خاصة بالرسول** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والشفاعة الأخرى هي شفاعته في إدخال أهل الجنةِ الجنةَ، أي: في فتح أبواب الجنة لهم فيدخلون، وهم لا يدخلون قبل أن يشفع لهم؛ لأنهم إذا نجوا من الصراط يُوقَفون في قنطرة بين الجنة والنار، ويُقتَصُّ منهم كل

---

(١) سبق تخريجه.

مظلمة قد علم الله أنها لا تمنعهم من دخول الجنة، ثم يُهَذَّبون وتُطَهَّر قلوبهم ويُسَلُّ منها كل ظلم وكل حقد، فيدخلون الجنة على قلب رجل واحد؛ لأن الجنة طاهرة يدخلها الطاهرون الطيبون، فيستفتح الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باب الجنة لهم فيقول خازن الجنة: من؟ فيقول: «أنا محمد». فيقول: أُمِرتُ ألا أفتح لأحد قبلك. فيفتح لهم فيدخلون الجنة.

الشفاعة الثالثة شفاعته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عمه؛ في عمه، كما في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ أبو طالبٍ، فقال: «**لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ، يَغْلِي مِنْهُ أُمُّ دِمَاغِهِ**»(١).

وفي رواية: «**لَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»(٢).

أما بقية الشفاعات فيشترك فيها هو -صلوات الله وسلامه عليه- وغيره من الملائكة والمؤمنين والرسل والأطفال؛ لأنه ثبت أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَا أَنْتُمْ بِأَشَدَّ لِي مُنَاشَدَةً فِي الحَقِّ، قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنَ**

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٨/ ١١٦) برقم (٦٥٦٤)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، (١/ ١٩٦) برقم (٢١٠).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب (٥/ ٥٢) برقم (٣٨٨٣)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، (١/ ١٩٤) برقم (٢٠٩).

الْمُؤْمِنِينِ يَوْمَئِذٍ لِلْجَبَّارِ، وَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا فِي إِخْوَانِهِمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا إِخْوَانُنَا، كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا. فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: اذْهَبُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، وَيُحَرِّمُ اللهُ صُوَرَهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيَأْتُونَهُمْ وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ، وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا»(١). وقد حرم على النار أن تأكل مواضع السجود؛ الجبهة، والأنف، والراحتين، والركبتين، وأطراف القدمين فيتبينون بذلك، وفيه تفصيل معروف.



(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] (٩/ ١٢٩) برقم (٧٤٣٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «وإنَّ الشَّفاعةَ حقٌّ، وإنَّ الحوضَ حقٌّ، والميزان حقٌّ، والحساب حقٌّ».

الشرح:

الحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير ولا يزول.

والحق له الثبوت، والباطل له الزوال والاضمحلال والزهوق، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ويقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ويقول: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]. فالحق ثابت؛ ولهذا جاء في اللغة في معنى الحق: الشيء الذي يلزم الشيء، فيقال: حق في المكان أي: ثبت فيه(١).

قوله: «وإنَّ الحوضَ حقٌّ».

أي: أنه شيء واقع ولابد من وقوعه، وقد أخبرنا الله جَلَّ وَعَلَا به كما أخبرنا بما يكون يوم القيامة؛ لأنه علَّام الغيوب جَلَّ وَعَلَا، وهو محيط بالماضي والمستقبل؛ ولهذا جاء إخباره بالفعل الماضي لما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف: ٤٤]، كلها جاءت بالفعل الماضي وهكذا ما بعدها من الآيات.

---

(١) «التعريفات» (ص٨٩)، و«المصباح المنير» (ص١٤٣).

وأمور الآخرة أمور عجيبة لا يجوز أن نقيسها بعقولنا أو بالأمور التي نشاهدها؛ إذ كيف ينادي أصحابُ الجنة أصحابَ النار وهم في دَرَكاتٍ في أسفلِ سافلينَ ثم يسمعونهم، وهؤلاء في أعلى عليين؟! بل أبلغ من هذا؛ أن الله جَلَّوَعَلَا أخبر عن فريق من أهل الجنة يقول: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝﴾، أي: في الدنيا، ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝﴾ إلى أن قال: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝﴾ وهذا قول واحد من أهل الجنة يقوله لأصحابه؛ أي: هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ على النار ﴿فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝﴾ [الصافات: ٥٠-٥٧] إلى آخر الآيات.

وهذا من الأمور العجيبة التي يجب أن يتأملها الإنسان، ويعتبر بها، ويفكر في ذلك.

والقرآن مليء بهذه الأشياء.

وأهل البدع ينكرون الحوض والميزان.

ويقولون: إن الحوض قبل الجنة، ولا يوجد أكل ولا شرب قبل الجنة، **والصحيح أن الحوض في الموقف**، وقد اختُلِف فيه، ولم يأتِ نصٌّ صريح أنه في الموقف، وقد ثبت في أحاديث كثيرة، وروى أحاديثه العشرةُ المبشَّرون بالجنة كلهم، بل رواه أكثر من ثمانين صحابيًّا. قيل: يكون في الجنة.

وقد جاء أنه يُصَبُّ فيه ميزابان من الجنة وأن ماءه أبيض من الثلج، وأحلى من العسل، وكيزانه عدد نجوم السماء، من ورده شرب منه شربة

لا يظمأ بعدها أبدًا، ويُذاد عنه أناس من هذه الأمة، كما في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سألت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: «أَنَا فَاعِلٌ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ فَأَيْنَ أَطْلُبُكَ؟ قَالَ: اطْلُبْنِي أَوَّلَ مَا تَطْلُبُنِي عَلَى الصِّرَاطِ. قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عَلَى الصِّرَاطِ؟ قَالَ: فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الْمِيزَانِ. قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عِنْدَ الْمِيزَانِ؟ قَالَ: فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الحَوْضِ فَإِنِّي لاَ أُخْطِئُ هَذِهِ الثَّلاَثَ الْمَوَاطِنَ»(١).

يُذاد عنه قوم خالفوا سنة المصطفى، يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، فَمَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ مِنْهُ، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا، لَيَرِدُ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ»، قال: «إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في «سننه»، في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في شأن الصراط (٤/ ٦٢١) برقم (٢٤٣٣)، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب الفتن، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، وما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحذر من الفتن (٩/ ٤٦) برقم (٧٠٥٠)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصفاته (٤/ ١٧٩٣) برقم (٢٢٩٠) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وجاء أن عَرْضَه مسيرة شهر وطوله مسيرة شهر[1]، وفي رواية: من المدينة إلى صنعاء[2]، أي: طوله، فهو أكبر.

ولكل نبي حوض، غير أن حوض نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم الأحواض وأكثرها واردًا؛ لأنه أكثر الأمم تابعًا. أما قول بعض الناس إلَّا صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإن حوضه ضَرعُ ناقته فهذا ليس له أصل[3].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وأنَّ الشَّفاعةَ حقٌّ، وأنَّ الحوضَ حقٌّ، والميزان حقٌّ**» هو ردٌّ على أهل البدع الذين ينكرون هذه الأمور، والغالب أن مثل هذه الأمور الثابتة لا تُذكَر في العقيدة إلا إذا كان هناك من ينكرها، وأهلُ البدع ينكرون الحوض.

كما أنهم أنكروا الميزان وقالوا: إن الميزان عبارة عن العدل أما أن يكون الميزان حقيقيًا فلا!.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب الرقاق، باب في الحوض (٨/ ١١٩) برقم (٦٥٧٩)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصفاته (٤/ ١٧٩٣) برقم (٢٢٩٢) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب الرقاق، باب في الحوض (٨/ ١١٩) برقم (٦٥٨٠)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصفاته (٤/ ١٨٠٠) برقم (٢٣٠٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) «الضعفاء الكبير» للعقيلي (٣/ ٦٤)، «الموضوعات» لابن الجوزي (٣/ ٢٤٤).

وقد جاءت النصوص في هذا صريحةً واضحة، مثل الحديث الصحيح عن ابن مسعود وغيره، فيُروى أن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يجتني سوَاكًا من الأَراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تَكْفَؤُه، فضحك القَوم منه، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِمَّ تضحكون؟»، قالوا: يا نبي الله، من دقّة ساقَيْه، فقال: «والذي نفسي بيده، لَهُمَا أثقل في الميزان من أُحُدٍ»[1].

وفي الحديث أيضًا: «إِنَّهُ لَيأْتِي الرَّجُلُ العظِيمُ السَّمِينُ يَومَ القِيَامَةِ لا يزِنُ عِندَ اللهِ جنَاحَ بَعُوضَةٍ»[2].

وفيه أيضًا: «مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ المُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ»[3].

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» حديث رقم (٣٩٩١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ٧٨) برقم (٨٤٥٢).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [الكهف: ١٠٥] الآية (٦/ ٩٣) برقم (٤٧٢٩)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٤/ ٢١٤٧) برقم (٢٧٨٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو داود في «سننه»، في كتاب الأدب، باب في حسن الخلق (٤/ ٢٥٣) برقم (٤٧٩٩)، والترمذي في «سننه»، في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق (٤/ ٣٦٢) برقم (٢٠٠٢) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

وفي الترمذي وغيره يقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ، فَيُنْشَرُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدُّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: هَلْ تُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: لا، يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لا. ثُمَّ يَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ، أَلَكَ حَسَنَةٌ؟ فَيَهَابُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لا، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ. فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ، مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟! فَيَقُولُ: إِنَّكَ لا تُظْلَمُ، فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ»[١].

فعلام يدلُّ ذلك؟!

أولًا: أن الميزان له كفتان.

الثاني: أنه تُوزن فيه صحائف الأعمال.

وقد ثبت أن الرَّجل أيضًا يُوزَن وثبت أن العمل يُوزَن، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، فإذًا لا ضير في أنها كلها توزن، ولكن بالنظر إلى ما جاء في كتاب الله نجد أن الميزان الذي ورد في الكتاب ورد بلفظ

(١) أخرجه ابن ماجه في «سننه»، في باب: ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٢/ ١٤٣٧) برقم (٤٣٠٠)، والترمذي، في أبواب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، برقم (٢٦٣٩)، من حديث عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

الجمع، ولم يرِد مفردًا؛ يقول جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨]، ولا يدخل في هذا -كما قد يتوهم متوهِّمٌ- قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]؛ لأن المقصود بالميزان هنا العدل لا الميزان الذي تُوزَن به الحسنات، وكذلك في سورة الرحمن ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الآية: ٧]، أي: وضع العدل الحق.

وقد أجاب العلماء عن هذا بقولهم: إما أن تكون الموازين قد جُمِعَت؛ لأن كل عمل له ميزان، وإما أنها جُمِعَت لكثرة الأعمال وكثرة من يُوزَنون.

والعلم عند الله جَلَّوَعَلَا.

قوله: «والحساب حقٌّ».

الحساب: هو أن يُحاسَب الإنسان في أعماله، فتُعرَض عليه، ويقال له: أنت عَمِلْتَ كذا وكذا، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝﴾ [الزلزلة: ٦-٨].

يُروى أن الإمام أبا حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ صلى صلاة العشاء خلف إمام، فسمعه يقرأ هذه الآية، فلما قضى الصلاة وخرج الناس قال يزيد بن الكميت: نظرت إلى أبي حنيفة وهو جالس يفكِّر ويتنفَّس، فقلت: أقوم لا يشتغل قلبه بي. فلما خرجتُ تركت القنديل ولم يكن فيه إلا زيت قليل، فجئت وقد طلع الفجر وهو قائم قد أخذ بلحية نفسه وهو يقول: يا من يَجزي

بمثقال ذرةِ خيرٍ خيرًا، ويا من يجزي بمثقال ذرةِ شرٍّ شرًّا، أَجِرِ النعمانَ عبدَكَ من النار وما يقرِّب منها من السوء، وأدخِلْه في سعة رحمتك. قال: فأذَّنت، فإذا القنديل يزهر وهو قائم، فلما دخلتُ قال لي: تريد أن تأخذ القنديل؟ قلت: قد أذنتُ لصلاة الغداة. قال: اكتُمْ عليَّ ما رأيتَ(١).

الحساب للمؤمنين مجرد عرض، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ**». فقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أليس الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝﴾ [الانشقاق: ٧-٨]؟ قال: «**ذَلكِ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ**»(٢).

ومعنى العرض أنه تُعرَض عليه أعماله فقط ثم يُعفى عنه، نسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يعفو عنَّا وعن المسلمين.



---

(١) تاريخ بغداد (١٥/ ٤٨٩).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝﴾ [الانشقاق: ٨] (٦/ ١٦٧) برقم (٤٩٣٩)، وبرقم (٦٥٣٦)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إثبات الحساب (٤/ ٢٢٠٤) برقم (٢٨٧٦).

[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ولا يقطعُون على أحدٍ من أهل الملّةِ أنَّه من أهل الجنَّة أو أنَّه من أهل النَّار؛ لأنَّ علمَ ذلك مُغَيَّبٌ عنهم، لا يَدْرُون على ماذا يموت؟ أعلى الإسلام أم على الكفر؟».

الشرح:

أي: ليس أهل الكفر من اليهود والنصارى؛ فهؤلاء يُقطع أنهم من أهل النار، أما أهل الملة، وهم من يُصَلُّون إلى القبلة؛ فمن أكل ذبيحتنا واستقبل قِبلتنا فهو من أهل مِلَّتِنا. ومهما عمل إنسان من أهل الملة من الذنوب فإنه لا يجوز أن يقال: إنه من أهل النار، ومهما عمل من الإحسان والاجتهاد فإنه لا يجوز أن نشهد له أنه من أهل الجنة، ولكن نقول: نرجو أن يقبل الله عمله وأن يكرمه بدخول الجنة. وكذلك نقول في المسيء: نرجو أن يعفوَ الله عنه.

أما الشهادة فلا تجوز إلا لمن شهد له الله أو شهد له الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقد شهد الله جَلَّ وَعَلَا لصحابة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آيات متعددة، ويقول ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كل الصحابة في الجنة بشهادة الله جَلَّ وَعَلَا. ولما جاء غلام حاطب إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: يا رسُولَ اللهِ، لَيَدْخُلَنَّ حاطِبٌ النَّارَ. قال رسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«كَذَبْتَ، لا يَدْخُلُهَا، فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ»**[1].

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»، في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أهل بدر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وقصة حاطب بن أبي بلتعة (٤/ ١٩٤٢) برقم (٢٤٩٥) من حديث جابر بن عبدالله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ومن بايع تحت الشجرة قد شهد لهم بالجنة[١]، وقد شهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأناس معيَّنين مِثل: العشرة المبشَّرين بالجنة[٢]، والحسن والحسين[٣]، وثابت بن قيس بن شمَّاس؛ خطيبِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه لما نزل قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: ٢]، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَهْوَرِيَّ الصوتِ، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك عِلْمَه، فأتاه فوجده جالسًا في بيته، منكِّسًا رأسه، فقال له:

---

(١) إشارة إلى ما أخرجه مسلم في «صحيحه»، في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ (٤/ ١٩٤٢) برقم (٢٤٩٦) من حديث أم مبشر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ، الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا**».

(٢) أخرجه أبو داود في «سننه»، في كتاب السنة، باب في الخلفاء (٤/ ٢١٢) برقم (٤٦٥٠)، والترمذي في «سننه»، في كتاب المناقب، باب مناقب عبدالرحمن بن عوف بن عبد عوف الزهري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٥/ ٦٤٨) برقم (٣٧٤٨)، وابن ماجه في «سننه»، في كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب في فضائل أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١/ ٤٨) برقم (١٣٣).

(٣) أخرجه الترمذي في «سننه»، في كتاب المناقب، باب مناقب أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب والحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (٥/ ٦٥٦) برقم (٣٧٦٨) من حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

ما شأنك؟ فقال: شرٌّ، كان يرفع صوته فوق صوت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد حَبِط عمَلُه وهو من أهل النار، فأتى الرجلُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره أنه قال كذا وكذا، فقال: «**اذْهَبْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**»[1].

وكذلك غيره من أصحاب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل من حضر بدرًا، ومن حضر بيعة الرضوان، وغيرهم؛ فقد أخبر الله جَلَّ وَعَلَا أنه رضي عنهم ورَضُوا عنه، ويكفي هذا؛ فإذا رضي الله عن قوم فإنه جَلَّ وَعَلَا يوفِّقْهم ويسَدِّدهم؛ لأنه علَّام الغيوب، ولا يمكن أن يخبر ربنا جَلَّ وَعَلَا عن أحد أنه رضي عنه ثم يرتد ويرجع للكفر!

ومع هذا يقول: لابد أن يكون الذي يُشهد له بالجنة شهد له الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ**»[2] فهذا ليس عن قصد، ولكن هذا في أمور قد يقذفها الله جَلَّ وَعَلَا في قلوب الناس،

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] الآية (٦/ ١٣٧) برقم (٤٨٤٦)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الإيمان، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله (١/ ١١٠) برقم (١١٩) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت (٢/ ٩٧) برقم (١٣٦٧)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الجنائز، باب فيمن يثنى عليه خير أو شر من الموتى (٢/ ٦٥٥) برقم (٩٤٩) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فيقولون: فلان من أهل الخير، فيكون هذا من البشرى العاجلة؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

والبشرى ليست مجرد الرؤيا؛ إذ الرؤيا جزء منها، ولكن هذه من الأمور التي أخبر بها المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ولكن يقولون: إنَّ من مات على الإسلام، مجتنبًا للكبائر والأهواء والآثام، فهو من أهل الجنَّة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ -ولم يذكُرْ عنهم ذنباً- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ [البينة: ٧-٨].

ومَن شهد له النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعينه بأنَّه من أهل الجنَّة، وصحَّ له ذلك عنه فإنَّهم يشهدون له بذلك: اتِّباعًا لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وتصديقًا لقوله».

الشرح:

الأهواء هي البدع والضلالات.

والآثام يدخل فيها المعاصي كلُّها الكبير والصغير.

فهم يزعمون أنه من أهل الجنة، وهذا ليس خاصًّا بأحد بعينه. ومن يتأمل كتاب الله جَلَّوَعَلَا يجد فيه أن رحمة الله واسعة جدًّا؛ لأنك إذا تأملته وجدته يذكر أهل الإجرام بأشد ما عندهم من الإجرام وأخبثه، وإذا ذكر أهل الإيمان ذكرهم بأحسن ما عندهم، ويسكت عن المخالفين؛ يقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢].

ولهذا يقول بعض العلماء: أكثر أهل الجنة العوام.

على كل حال يجب على الإنسان أن يجتهد، يُروى أن الرسول

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا تَنْسَوُا الْعَظِيمَتَيْنِ، الْجَنَّةُ وَالنَّارُ**»[1]؛ لأن المصير إليهما، وهما عظيمتان، فلابد أن يجعل الإنسان هذا بين عينيه دائمًا، كما قال أحد العلماء: كلما عرضَت لي مسألةٌ صرفتُها إلى الجنة والنجاة من النار؛ لأنها عظيمة جدًّا، فلابدَّ من ذلك.

قوله: «**ولم يذكُر عنهم ذنباً**»، ذكر سبحانه أنهم آمنوا وعملوا الصالحات؛ وهذا الوصف يكفي.

قوله: «ومَن شهد له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعينه بأنَّه من أهل الجنَّة، وصحَّ له ذلك عنه فإنَّهم يشهدون له بذلك؛ اتِّباعًا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتصديقًا لقوله».

الشرح:

ليس في هذا فقط، فكل ما أخبر به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجب أن يُشهَد به ويُؤمَن به.



(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (ص: ٩٧) برقم (١٠٢)، وفي صفة النار (ص: ١٤) برقم (٢) من حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ويقولون: إنَّ عذابَ القبر حقٌّ، يُعذِّبُ الله من استحقَّه إن شاء، وإن شاء عفا عنه، لقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، **فأثبتَ لهم ما بقيت الدنيا عذابًا بالغُدو والعَشيِّ دون ما بينهما، حتى إذا قامت القيامةُ عُذّبوا أشدَّ العذابِ، بلا تخفيفٍ عنهم كما كان في الدنيا».**

الشرح:

الأمر إليه تعالى وتقدس؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. فأثبت لهم ما بقيت الدنيا عذابًا بالغدوِّ والعَشِيِّ دون ما بينهما، أي: ما بين الغُدُوِّ والعَشِيِّ.

ولا يلزم أن يُفَتَّر عنهم في الغُدُوِّ؛ لأن هذا ليس مقصودًا والله أعلم، إنما المقصود هو الإخبار بأن هذا مستمر، حتى إذا قامت القيامة عُذِّبوا في النار أشدَّ العذاب، لا تخفيف عنهم كما هو الحال في الدنيا.

ومجمَل أسباب عذاب القبر هو الجهل بالله.

وهناك أسباب أخرى؛ مثل ما ورد في الحديث الصحيح في حديث الرؤيا من أن النبي ﷺ تأخَّر عن صلاة الفجر يومًا عن العادة، ثم خرج وصلى صلاة تجوَّز فيها، فلما صلى قال لأصحابه: أماكنَكم أخبِرْكم ما الذي حبسني.

ثم قال: «إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالَا لِي: انْطَلِقْ. وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ، فَيَتَدَهْدَهُ الحَجَرُ هَا هُنَا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى. فَقُلْتُ لَهُمَا: سُبْحَانَ اللهِ! مَا هَذَانِ؟ فَقَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ. فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الجَانِبِ الآخَرِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الأَوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى، فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ! مَا هَذَانِ؟ فَقَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ. فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ، فَاطَّلَعْنَا فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا، فَقُلْتُ لَهُمَا: مَا هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ. فَانْطَلَقْنَا،

فَأَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ، وَإِذَا فِي النَّهَرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الحِجَارَةَ، فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا فَيَنْطَلِقُ يَسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَ لَهُ فَاهُ فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا، فَقُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَانِ؟ فَقَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ. فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ المَرْآةِ، كَأَكْرَهِ مَا أَنْتَ رَاءٍ رَجُلًا مَرْآةً، وَإِذَا عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، فَقُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟ فَقَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ. فَانْطَلَقْنَا. . . » فذكر أشياء، ثم فسروا له ذلك فقالوا: «أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالحَجَرِ فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ القُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ المَكْتُوبَةِ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ، فَيَكْذِبُ الكَذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ، وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ العُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ فَإِنَّهُمُ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهَرِ وَيُلْقَمُ الحَجَرَ فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا...» الحديث[1]. فهذا هو عذابُ القبر.

وفي «الصحيحين» عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قَبْرَيْنِ فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ مِن كَبِيرٍ» ثُم قال: «بَلَى أَمَّا

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح (٩/ ٤٤) برقم (٧٠٤٧) من حديث سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَسْعَى بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ»[١].

فهذا أيضًا دليل على أن عدم التنزه وعدم التطهر: من أسباب عذاب القبر، وكذلك النميمة من أسباب عذاب القبر.

وفي عذاب القبر أحاديث كثيرة ينبغي الوقوف عندها.

المقصود أن عذاب القبر ثابت، والأصل في هذا أن الموت ليس فَناءً ولا عَدَمًا، وإنما هو انتقال من حياة إلى أخرى، فهي حياة أخرى يحسُّ بها، **والصحيح أن العذاب على الروح والبدن معًا**، حتى وإن كان البدن قد احترق، أو تمزق، أو أكلته السباع والطيور؛ فإن ذراتِه التي تعود ترابًا تُعَذَّبُ، ورُوحه كذلك.

ويختلف العذاب باختلاف الذنوب؛ فقد يستمر العذاب إلى يوم القيامة، وقد لا يستمر، فيُعذَّب في الموقف، وقد لا يكفي فيُعَذَّب في النار، وقد ينقطع عذابه؛ إما بسبب دعاء يلحقه أو صدقة أو ما أشبه ذلك، وإما أن يكون إجرامه أقل فيُكتَفى ببعض الوقت لتعذيبه.



---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب الجنائز، باب عذاب القبر من الغيبة والبول (٢/ ٩٩) برقم (١٣٧٨)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (١/ ٢٤٠) برقم (٢٩٢).

[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «وقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، يعني: قبل فناء الدُّنيا؛ لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]، بيَّن أن المعيشةَ الضَّنْكَ قبل يومِ القيامة، وفي معاينتنا اليهود والنَّصارى والمشركين في العيش الرَّغْدِ والرَّفاهة في المعيشة ما يُعلم به أنَّه لم يُرِد به ضِيق الرِّزق في الحياة الدنيا؛ لوجودنا مشركين في سَعةٍ من أرزاقهم، وإنَّما أراد به بعد الموتِ قبل الحشر».

الشرح:

قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٧].

ويقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣-١٤].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأبرار في نعيم في دورهم الثلاث؛ في الدنيا، وفي القبر، وفي الآخرة، وكذلك الفُجَّار في جحيم في الدور الثلاث»[(١)].

وإن كان يظهر للناس أنهم ليسوا في جحيم، ولكنهم في الواقع في جحيم، وإن كان عندهم أموال وأُبَّهة، وما يشتهون فهم في جحيم في نفوسهم؛ ولهذا تُشاهِد من يختار الانتحار ويسعى إلى الموت والنار،

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ٤٢٣).

ويزعم أنه يرتاح من النكد والكَبَد الذي يعانيه! وهو في الواقع ينتقل من عذاب إلى عذاب.

والقاعدة التي دلت عليها نصوص من كتاب الله جَلَّوَعَلَا ومن أحاديث رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أن أشدَّ ما يُلاقي المؤمِنُ الموتُ، وما بعده أخفُّ منه، وأهون ما يُلاقي المجرمُ الموتُ، وما بعده أشدُّ منه.

فالمقصود أن عيشة الضَّنْك تكون في الدنيا، وتكون في القبر، وتكون في الآخرة.

قوله: «بيَّن أن المعيشةَ الضَّنْكَ قبل يومِ القيامة، وفي معاينتنا اليهود والنَّصارى والمشركين في العيش الرَّغْدِ والرَّفاهة في المعيشة...».

هذا هو الظاهر، ولكن في نفوسهم هَمٌّ وشقاء، ليس عندهم استقرار ولا طمأنينة، فتجده يرتعد من أقل شيء يلاقيه، بل لو كان في بيته فحَرَّكَت الريح الباب ارتعد، وقال: ما الذي فعل هذا؟!

فهم في خوف دائم، فهذا من العذاب في الدنيا، بخلاف المؤمن؛ فإنه مطمئن.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ويُؤمنون بمسألة مُنْكَرٍ ونَكِيرٍ، على ما ثبت به الخبرُ عن رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع قوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، **وما ورد تفسيره عن النَّبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».**

الشرح:

وقوله: «ويُؤمنون بمسألة مُنْكَرٍ ونَكِيرٍ».

معنى هذا أن هذين الاسمين لمَلَكَينِ كريمين من ملائكة الله هما مُنْكَر ونكِير، وسُمِّيَا بذلك؛ لأن خِلْقَتَهما وأصواتهما وانتهارهما شديد، كما أخبر بذلك صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا يكون في القبر، حيث يسألانه عن ثلاثة أشياء؛ يُسأل عن معبوده، وعن العبادة ما هي، وعمن جاء بها.

أي: عن ربه، وعن دينه، وعن نبيه. وقد ثبت ذلك عن الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حديث البراء بن عازب، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولَمَّا يُلْحَدْ، فجلس رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجلسنا حوله كأنما على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه، فقال: **«اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»** مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، وقال: **«وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ قَالَ: «فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولَانِ: وَمَا**

يُدْرِيكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [إبراهيم: ٢٧] الْآيَةُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِيه مَدَّ بَصَرِهِ» قَالَ: «وَإِنَّ الْكَافِرَ» فَذَكَرَ مَوْتَهُ قَالَ: «وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ: لَهُ مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ هَاهْ، لا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَبْكَمُ مَعَهُ مِرْزَبَّةٌ مِنْ حَدِيدٍ لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ لَصَارَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ بِهَا ضَرْبَةً يَسْمَعُهَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ فَيَصِيرُ تُرَابًا، ثُمَّ تُعَادُ فِيهِ الرُّوحُ»[1]. نسأل الله العافية.

وفي هذا نصوص كثيرة، وقد أمرنا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نستعيذ بالله من عذاب القبر في كل صلاة، كما أمرنا أن نستعيذ بالله من عذاب النار[2].

---

(١) أخرج أبو داود في «سننه»، في كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر (٤/ ٢٣٩) برقم (٤٧٥٣) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) إشارة إلى ما أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب =

قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

أي: عند السؤال، ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يثبته على الحق الذي يجب أن يعرفه، أما قوله ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ فيقصد به عند السؤال.

وقوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾، أي: الفاجر الذي أخبر به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يتلعثم ولا يستطيع أن يجيب، ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

قوله: «وما ورد تفسيره عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

أي: في الأحاديث التي جاءت صريحةً في هذا ومفسِّرةً لعذاب القبر، وهي كثيرة تقدم ذكر شيء منها.



= القبر (٢/ ٩٩) برقم (١٣٧٧)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (١/ ٤١٢) برقم (٥٨٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ**».

[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ويرون تركَ الخُصومات والمِراء في القرآن وغيره؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، يعني: يجادل فيها تكذيبًا بها، والله أعلم».

الشرح:

أي: يرون ذلك من الدين.

وقوله: «**الخصومات**»، أي: المجادلة، والمقصود بالمجادلات أن يُظهر الإنسان نفسه بمظهر العَالِم الغالب الذي يستطيع أن يقيم الحجج، وأن يُبطِل حُجَج الخصوم.

وهذا من الأمور التي تجعل الإنسان ممقوتًا عند الله جَلَّوَعَلَا؛ لأنه يريد أن يُظهِرَ نفسه فوق الناس، وأن الناس يُثنون عليه، وأنه عَالِم، وأنه يستطيع أنه يغلب الخصم، وما شابه ذلك.

أما المجادلات في الحق وإدحاض الباطل فهذا أمر مطلوب، ولكن يجب أن يكون بالتي هي أحسن، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، و﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

وهو داخل في الدعوة إلى الله جَلَّوَعَلَا، وقول الله جَلَّوَعَلَا في خطابه لرسوله: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وكذلك المجادلة في كون القرآن مختلَفًا فيه؛ هل هو كذا أو هو كذا؟

ومثل ذلك المجادلةُ في صفات الله، هذا لا يجوز أن يكون بحال؛ إذ يجب على الإنسان أن يعظِّم اللهَ جَلَّوَعَلَا وأن يَقدرَه حقَّ قَدْرِه، وإذا ذُكِرَت صفات الله يجب أن يخاف أن يقع في شيء من القول على الله بلا علم، فقد ذكر الله جَلَّوَعَلَا أن القول عليه بلا علم أعظمُ من الشرك، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقد بدأ في هذه المحَرَّمات بأخفها، ثم انتقل إلى ما هو أعظم، وختمها بالقول عليه بلا علم.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ويُثبتون خلافةَ أبي بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باختيار الصَّحابة إيّاه.

ثمّ خلافة عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بعد أبي بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ باستخلاف أبي بكر إيّاه.

ثمّ خلافة عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بعد أبي بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ باستخلاف أبي بكر إيّاه.

ثمّ خلافة عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: باجتماع أهل الشُّورى وسائرِ المسلمين عليه عن أمر عمر.

ثمّ خلافة علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ ببيعة من بايع البدريّين: عمَّار بن ياسر، وسهل بن حنيف، ومن تبعهما من سائر الصحابة، مع سابقه وفضله».

الشرح:

ليس باختيار الصحابة فحسب، بل بإشارات كثيرة وردت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل يقول بعض العلماء: إنه بنصٍّ عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد جاءت أحاديث كثيرة في هذا، لكن لم يأتِ فيها أنه قال له: أنت خليفة، فقد جاء أنه أمر بالكتابة له، قال لعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: **«ائتيني بكتاب أو ادعي لِي أخاكِ وأباكِ لأكتب له كتابًا؛ حتى لا يتقوَّلَ متقَوِّلٌ أو يتمنَّى متمنٍّ»**. ثم قال: **«يَأْبَى اللهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ»**[1]. فهَمَّ بالكتاب ثم

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب المرضى، باب قول المريض: إني وجع، أو وارأساه، أو اشتد بي الوجع (٧/ ١١٩) برقم (٥٦٦٦)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (٤/ ١٨٥٧) برقم (٢٣٨٧) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

عدل عنه مرتين لعلمه أن المؤمنين سيجتمعون عليه، وهذا يكون أبلغ.

كما أن هناك إشارات على ذلك:

منها: أنه أمره بالصلاة، فقد قال ﷺ في مرضه: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**».

وحاولت عائشة كثيرًا أن تصرفه عن هذا، تقول: قد علمتُ أن الناس يتشاءمون بمن يقوم مقام رسول الله ﷺ بعده، فقلت: يا رسول الله، إن أبا بكر رجلٌ أسيفٌ، إذا قام مقامك فلا يُسْمِعُ الناسَ من البكاء. فقال: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**». فذَهَبَت وقالت لحفصة: قولي له كذا وكذا، فذَهَبَت حفصة وقالت: إن أبا بكر رجل كذا، لو أمَرْتَ عُمَرَ يصلِّي بالناس، فقال: «**إِنَّكُنَّ لَأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**». قَالَتْ: فَأَمَرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ(١).

وكذلك لما جاءت المرأة تطلب حاجة فَأَمَرَهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ، قالت: أرأيتَ إن لم أجِدْك. تقصد الموتَ، قال: «**إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب الأذان، باب حد المريض أن يشهد الجماعة (١/ ١٣٣) برقم (٦٦٤)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر، وغيرهما من يصلي بالناس (١/ ٣١١) برقم (٤١٨).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذًا خليلًا**» (٥/ ٥) برقم (٣٦٥٩)، ومسلم في «صحيحه»،=

وحديث الرؤيا [1] وغيره من الأحاديث الكثيرة، حتى ذهب بعض أهل العلم إلى أن خلافة أبي بكر منصوص عليها من قِبَل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما قول الرافضة: إنَّ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوصى بالخلافة إلى عليٍّ، فهو كذب صريح، وهم يتعمدون الكذب، ولا يوجد دليل على هذا؛ لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: «ثمّ خلافة عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعد أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ باستخلاف أبي بكر إيّاه».

خلافة عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فباستخلاف أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ له، وقد اجتمعوا على ذلك.

= في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (٤/ ١٨٥٦) برقم (٢٣٨٦) من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(١) إشارة إلى ما أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٤/ ٢٠٥) برقم (٣٦٣٣)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل عمر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (٤/ ١٨٦٢) برقم (٢٣٩٣) من حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بَيْنَمَا أَنَا عَلَى بِئْرٍ أَنْزِعُ مِنْهَا جَاءَنِي أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ الدَّلْوَ فَنَزَعَ ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ، وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ الخَطَّابِ مِنْ يَدِ أَبِي بَكْرٍ، فَاسْتَحَالَتْ فِي يَدِهِ غَرْبًا -الغرب هو الدلو الكبير الذي تحمله الناقة أو الثور، ولا يحمله الإنسان- فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ، فَنَزَعَ حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ».

قوله: «ثمّ خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ باجتماع أهل الشُّورى وسائرِ المسلمين عليه عن أمر عمر».

عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اتفقوا عليه اتفاقًا عامًّا تامًّا حتى ظلوا يتشاورون وقتًا، فاجتمعوا على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: «ثمّ خلافة علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ببيعة من بايع البدريّين: عمَّار بن ياسر، وسهل بن حنيف، ومن تبعهما من سائر الصحابة، مع سابقه وفضله».

خلافة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقعت في زمن فتنة، فبايعه من بايعه من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وهو أهلٌ لذلك؛ فهو أحد الخلفاء الراشدين، وفضلهم وخلافتهم على هذا الترتيب، فمن لا يصدق بذلك ويعتقده فهو ضال، وأهل السُّنَّة يذكرون هذا ردًّا على الرافضة وغيرهم ممن يردّ على هذه الأمور.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ويقولون بتفضيل الصحابة الذين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ لقوله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، **وقوله:** ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٠]».

الشرح:

هؤلاء هم أهل بيعة الرضوان، وكانوا ألفًا وأربعمائة، وقد شهد لهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجنة.

وقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ذكر الصحابة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وأما الذين اتبعوهم فقَيَّده أنه يكون بإحسان ﴿ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾، فهؤلاء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ومَن أثبتَ الله رضاه عنه لم يكن منه بعد ذلك ما يُوجب سخطَ الله عَزَّوَجَلَّ، ولم يُوجِبْ ذلك للتَّابعين إلا بشرط الإحسان، فمَن كان من التَّابعين من بعدهم ولم يأتِ بالإحسان فلا مَدْخَلَ له في ذلك».

الشرح:

أي: أن الله إذا ذكر أنه رضي عن أحد فهو دليل على ثباته على الإيمان والحق حتى يأتيه الموت؛ لأن الله جَلَّوَعَلَا علَّام الغيوب، وهذا فيه ردٌّ على الذين يزعمون أن الصحابة ارتدوا وكفروا.

قوله: «ولم يُوجِبْ ذلك للتَّابعين إلا بشرط الإحسان».

أي: الرضا دون شرط الإحسان.

ومن كان من التابعين من بعدهم ولم يأتِ بالإحسان فلا مدخل له في ذلك.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ**]: «ومَن غاظه مكانهم من الله** عَزَّوَجَلَّ**، فهو مَخُوفٌ عليه ما لا شيء أعظم منه -يعني: الكفر- لقوله** عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ﴾ [الفتح: ٢٩]، **فأخبر أنَّه جعلهم غيظاً للكافرين».**

الشرح:

أي: غاظه مكانُهم من الإسلام وكونُهم صحابة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: «فهو مَخُوفٌ عليه الكفرُ؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ...﴾».

مَخُوفٌ عليه الكفرُ؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ﴾، وقد قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من غاظه شأن الصحابة فهو ليس من المؤمنين»[1].



(١) «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٤٧)، «تفسير القرطبي» (١٦/ ٢٩٧).

[قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ**]: «وقالوا بخلافتهم؛ لقول الله** عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [النور: ٥٥]، **فخاطب بقوله** ﴿مِنكُمْ﴾، **من نزلت الآية وهو مع النبي** صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **على دينه، فقال بعد ذلك:** ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

الشرح:

فهذا وعد من الله أنجزه لهم، وقد عرفوا ذلك وتيقنوا منه.

يُروى أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قالوا لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما وقعت الرِّدَّة وكان أهل المدينة محاصَرين من كل جانب من المشركين الذين رجعوا إلى الكفر والشرك: يا خليفة رسول الله، لو رفقت بالناس حتى نتمكن. فقال: لا، والله لأقاتِلَنَّهم بكل ما أستطيع، فإن الله وعدنا التمكين ووعدنا النصر، فلا يكون غيرنا أسعد بذلك منا.

فثبت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثبوت الجبال في هذه الأمور المخيفة جدًّا؛ إذ توفي الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وارتد الناس، فظلَّت المدينة محاصرة من جميع الجهات بالمشركين، مع قلة الصحابة، ثم هو يُنفِذ جيش أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الشام في هذه الحالة، فيقول له الصحابة: لو أبقيته حتى نأمن. فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والذي نفسُ أبي بكر بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني

لأنفذتُ بَعْثَ أسامة كما أمر به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو لم يَبْقَ في القرى غيري لأنفذته[١].

مما يدل على قوة إيمانه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بوعد الله وبنصرة هذا الدين، أنه لم يحدث له خوف بعدما كان مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغار[٢].

ثم قاتل أهل الرِّدَّة جميعًا حتى أرجع مَن بقي منهم إلى الإسلام، ثم بعد ذلك أمر بقتال أهل الكتاب والفُرس، فكان الفُرس والروم يتعجبون منهم، ويقول بعضهم لبعض: انظروا إلى ضعف أجسامهم وإلى ثيابهم المشمرة، وانظروا إلى خيولهم الضعيفة، وإلى سيوفهم المُوسَرة بالقدّ. فكانوا يضحكون منهم ويسخرون، حتى قال لهم قائد الفرس: أعطيكم شيئًا من الطعام تأكلونه وترجعون، وإلا والله لندفننَّكم دفنًا دون قتل!

---

(١) «تاريخ الطبري» (٣/ ٢٢٥).

(٢) قال السهيلي في «الروض الأنف في شرح السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٣٥): «فعندما رأى أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ القافة اشتد حزنه على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: إن قتلت فإنما أنا رجل واحد وإن قتلت أنت هلكت الأمة، فعندها قال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تحزن إن الله معنا»، ألا ترى كيف قال: لا تحزن ولم يقل لا تخف؟ لأن حزنه على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شغله عن خوفه على نفسه، ولأنه أيضًا رأى ما نزل برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من النصب، وكونه في ضيقة الغار مع فرقة الأهل ووحشة الغربة، وكان أرق الناس على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأشفقهم عليه فحزن لذلك».اهـ.

فيقولون: وعد الله معنا؛ إما أن تؤمنوا وتكونوا مثلنا، وإما أن تدفعوا الجزية وأنتم صاغرون. قالوا: وما معنى صاغرين؟ قالوا: أن تكونوا صغارًا عند دفعها ونحن فوقكم. فغضبوا أشد الغضب، وفي النهاية صاروا تحت سنابك خيل الصحابة! كل هذا لأنهم آمنوا بالله جَلَّ وَعَلَا، وصدَّقوا ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وامتثلوا ذلك مع ضعفهم وقلتهم فنصرهم الله وأيَّدهم بالإيمان الذي قَبِلوه. وقد قال رستم للمغيرة وهو يخاطبه: ألم نعهدكم أفقر الناس وأقلهم قيمة؟ قال: بلى، ونحن أكثر مما تعلم؛ كنا نأكل القَدَّ، ويقتل بعضنا بعضًا، ونقتل أولادنا، وكنا نعبد الحجارة، ونعبد الشجر، ولكن الله أرسل إلينا رسولًا منا نعرف صدقه ونسبه وأمانته، فآمنا به، فوعَدَنا ربنا جَلَّ وَعَلَا النصر والتأييد في الدنيا، ووعَدَنا الجنة إذا قُتِلْنا[1].



(١) قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٧/ ٤٧): «[قال المغيرة بن شعبة] إنا كنا قوما في شر وضلالة، فبعث الله إلينا نبيا فهدانا الله به ورزقنا على يديه، فكان فيما رزقنا حبة تنبت في هذا البلد، فلما أكلناها وأطعمناها أهلينا قالوا: لا صبر لنا عنها، أنزلونا هذه الأرض حتى نأكل من هذه الحبة، فقال رستم: إذا نقتلكم. قال إن قتلتمونا دخلنا الجنة، وإن قتلناكم دخلتم النار وأديتم الجزية. قال: فلما قال وأديتم الجزية نخروا وصاحوا وقالوا: لا صلح بيننا وبينكم. فقال المغيرة: تعبرون إلينا أو نعبر إليكم؟ فقال رستم: بل نعبر إليكم، فاستأخر المسلمون حتى عبروا فحملوا عليهم فهزموهم».اهـ.

[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «فمكَّن الله بأبي بكر الصديق وعمر وعثمان الدِّين -وَعْدَ اللهِ- آمنين يَغزون ولا يُغزون، ويُخيفون العدوَّ ولا يُخيفهم العدوُّ».

الشرح:

دلَّ على هذا كتاب الله جَلَّوَعَلَا؛ فقد تحقق وعد الله لهم، فنصرهم ومكَّنهم، وصاروا آمنين يَغزون ولا يُغزَون ويُخيفون ولا يخافون، كل هذا بإذن الله جَلَّوَعَلَا ورحمته، واتباعهم ما أمر الله جَلَّوَعَلَا به وانتهائهم عما نهى عنه.

وهذا ليس خاصًّا بهم؛ لأن الأمة إذا رجعت إلى ما كانوا عليه فسوف يُمَكِّنُ لهم كما مكَّن لهم.

وفي هذا ثبت قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي**»، ومنه قوله: «**وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيَّ مَسِيرَةَ شَهْرٍ**»[(١)].

فهذا يكون له ولأتباعه بشرط الاتِّباع، أما إذا تركوا أمر الله واجتنبوه فيكونون كغيرهم؛ أي: أن الأمر يتوقف على الاستعداد والقُوَّات التي تكون لهم ولأعدائهم، فمن كان أكثر قوة وأكثر سدادًا غَلَب، فإذا أطاعوا الله واتَّبعوه فإن الله ينصرهم؛ لهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في أول كتاب التيمم (١/ ٧٤) برقم (٣٣٥)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا (١/ ٣٧٠) برقم (٥٢١) من حديث جابر بن عبدالله.

وقد جرب المسلمون هذا منذ زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى اليوم، ومن يملك بصرًا ونظرًا وفكرًا لا يخفى عليه ذلك.

فيجب أن يعتبروا بهذا؛ فأول ما كان ذلك ما وقع لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأصحابه في غزوة أحد؛ فإنه بدأ النصر وانهزم العدو، فلما وقعت المعصية انقلبت الأمور، وحصل ما حصل مِن قَتلِ كثير من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وجُرح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وانتصار العدو في تلك المعركة بسبب المعصية، وهذا تأديب من الله جَلَّ وَعَلَا لعباده.

وهكذا فيما بعدُ في وقائع كثيرة جدًّا، والأمر لا يتغير، إذا رجعوا إلى ربهم جَلَّ وَعَلَا أرجع إليهم النصر والتأييد، ولكن لابد من مجاهدة العدو؛ لأن القرآن نزل بهذا، يقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ، وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»**(١).

وإذا كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعث بهذا فلا يجوز أن يتغير، وكذلك يجب أن يكون أتباعه على ذلك، وإلا تغير الأمر بالنسبة لهم حسَبما يكون عندهم من التخلف عن السُّنَّة وعن الطاعة.

لم يذكر عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنه وَلِيَ الخلافة في زمن فتنة ولم يقاتِلِ العدو في

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩/ ١٢٣) برقم (٥١١٤) من حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقته، وإنما كان القتال بينهم حتى طمع العدو في شيء من بلادهم، وصار يأخذ شيئًا منها.

وهذا حال الفتن؛ إذ تَعُود على الناس بالضعف، نسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يسلِّمَنا ويحميَنا منها.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «وقال عَزَّوَجَلَّ لقوم تخلفوا عن نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الغزوة التي ندبهم الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣].

فلمَّا لقُوا النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسألونه الإذنَ في الخروج للغزو، فلم يأذن لهم؛ أنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: ١٥].

وقال لهم: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦].

الشرح:

وقوله: «وقال عَزَّوَجَلَّ لقوم تخلفوا عن نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ...».

يُستدَلُّ بهذا على أن الخلافة حق، وقد جاءت نصوص تؤيد ذلك؛ منها: حديث سَفِينَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الخِلَافَةُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ مُلْكٌ بَعْدَ ذَلِكَ** ثُمَّ قَالَ سَفِينَةُ: أَمْسِكْ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ، وَخِلَافَةَ عُمَرَ، وَخِلَافَةَ عُثْمَانَ، ثُمَّ قَالَ لِي: أَمْسِكْ خِلَافَةَ عَلِيٍّ قَالَ: فَوَجَدْنَاهَا ثَلَاثِينَ سَنَةً»(١) أي: أنها ثلاثون سنة، وقد كملت في خلافة

---

(١) أخرجه أبو داود في «سننه»، في كتاب السنة، باب في الخلفاء (٤/ ٢١١) برقم (٤٦٤٦)،=

الحسن لما تنازل عنها إلى معاوية؛ لأن خلافته كانت ستة أشهر، فهي خلافة نبوَّة، أما بعد ذلك فهو مُلْك، والمُلْك يختلف.

وقوله: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾.

من المعلوم أن هذه الآيات نزلت في المنافقين.

قوله: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣].

هذا لعقابهم.

قوله: «فلمَّا لقُوا النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يسألونه الإذنَ في الخروج للغزو، فلم يأذن لهم؛ أنزل الله** عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ...﴾.

نزلت هذه الآية قبل نزول الآية التي ذكرها؛ لأن الآية الأولى في سورة التوبة، وسورة التوبة نزلت في غزوة تبوك -آخر الآيات على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، أما سورة الفتح فقد نزلت في السَّنةِ السادسة في صلح الحُدَيبيَة، وبينهما أربع سنوات، فكيف يقول فنزلت هذه الآية: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ...﴾؟!

ولكن هذا القول: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾،

= والترمذي في «سننه»، في كتاب الفتن، باب ما جاء في الخلافة (٤/٥٠٣) برقم (٢٢٢٦)، وقال: «هذا حديث حسن».

قاله الله جَلَّ وَعَلَا لما وعد الله جَلَّ وَعَلَا أهل الحُديبيَة المغانم التي فيها مغانم خيبر، فأخبر أن من تخلف عن الحُدَيبيَة سيقول هذا القول، فوقع ذلك، فلم يؤذن لهم؛ لأن مغانم خيبر خاصة لأهل الحديبية كما ذكر الله جَلَّ وَعَلَا ذلك، فلا مناسبة لقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ﴾ [الفتح: ١٥].

قوله: «**وقال لهم:** ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [**الفتح: ١٦**]».

استدلَّ العلماء بهذه الآية على صحة خلافة الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأن الصحيح أن قوله: ﴿قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ﴾ هم الفُرس، وهم دعوا إلى قتالهم، وإن كان بعض المفسِّرين يقول: هم بنو حنيفة. وإن كان كذلك فالأمر لا يختلف؛ لأنه ينطبق الوصف عليهم في زمن أبي بكر، وأما في زمن عمر فهم الفُرس والروم، فالفرس هم أولو البأس الشديد الذين ذكرهم الله جَلَّ وَعَلَا بهذا في قوله: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾، أي: أن الذي يقوم بأمر الله جل شأنه بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الحق، وهذا وقع بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدَلَّ ذلك على صحة الخلافة.

يقولون: إذا صحت خلافة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بهذا النص، انتظم من ذلك خلافة الثلاثة بعده.

على كل حال هذا استنباط يحتاج إلى تفهُّم، وهناك ما هو أوضح وأجلى من هذا، كما جاء في السُّنَّة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك الآيات التي دلت على رضاه جَلَّ وَعَلَا عنهم دليل على أنهم على الحق.

﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ هم المخلفون من الأعراب، وهذا خاص بشيء معين، وليسوا مُخلَّفين دائمًا، وهم الذين تخلفوا عن المسير مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الحُدَيبيَة؛ لأن هذه الآية نزلت في غزوة الحُدَيبيَة.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «والذين كانوا في عهد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحياءً خُوطبوا بذلك لمَّا تخلفوا عنه، وبقي منهم في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فأوجب لهم بطاعتهم إيّاهم الأجرَ، وبترك طاعتهم العذاب الأليم، إيذانًا من الله عَزَّ وَجَلَّ بخلافتهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، لا جعلَ الله في قلوبنا غِلاً لأحدٍ منهم، فإذا ثبتتَ خلافة واحدٍ منهم انتظمَ منها خلافة الأربعة».

الشرح:

وقوله: «والذين كانوا في عهد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحياءً خُوطبوا بذلك لمَّا تخلفوا عنه».

أي: بهذا الخطاب الذي ذكر أنهم سيُدعَون ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾، وهذه الآية السابقة دليل على أن القتال مشروع مطلقًا؛ لأنه قال: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾، وهذا يرد قول الذين يقولون اليوم: إن القتال يكون للدفاع فقط ولمن قاتل المسلمين؛ لأنه قال: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾. هذا القتال ليس للدفاع، فإما أن يُقتَلوا أو يُسلِموا.

والآيات في هذا كثيرة.

وقد ظهر كتاب -يُزعم أنه لشيخ الإسلام وهو ليس له- يزعم أن القتال للدفاع فقط، وأن العدو لا يُقاتَل إلا إذا قاتل! ويستدلون بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى

سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾، فيقولون: هذا هو القول! ويتركون ما بعده من قوله: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٨٩-١٩٣].

واتفق الصحابة على أن الفتنة هي الشرك، و﴿تَكُونَ﴾ هنا تامة بمعنى توجَد، وقال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥]، فهل يقال في هذا: أن هذا قتال للدفاع؟!

قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٢٣﴾ [التوبة: ١٢٣]، والآيات في هذا الأمر كثيرة جدًّا، ثم بعد هذا كله يقولون: إنه لم يقع قتالٌ ابتداءً، وهذا إنكار للواقع، وإذا أُنكِر الواقع فلا حيلة في المجادلة، ولكن يجب أن يُبيَّن الحق.

المقصود أن قوله: «والذين كانوا في عهد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحياءً خُوطبوا بذلك لمَّا تخلفوا عنه».

هذا عامٌّ، سواء قيل في المنافقين أو في غيرهم؛ لأنه يدل على أن الذي يقوم بالأمر في هذا الوقت مُتَّبع ما عليه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيكون دليلًا على أن هذه الخلافة صحيحة، خلاف ما سبق.

ومن العلماء من يرى أنها بالنص، ومنهم من يرى أنها بالإشارة، مثل ما ذُكِر من أنه أمر أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يصلِّي بالناس؛ ولهذا قال الصحابة: قد رضيه الرسول لديننا، فنحن نرضاه لدنيانا.

وكذلك حديث الرؤيا، عندما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«بَيْنَمَا أَنَا عَلَى بِئْرٍ أَنْزِعُ مِنْهَا، جَاءَنِي أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ الدَّلْوَ، فَنَزَعَ ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ، وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ الخَطَّابِ مِنْ يَدِ أَبِي بَكْرٍ، فَاسْتَحَالَتْ فِي يَدِهِ غَرْبًا** -الغَربُ: هو الدَّلوُ الكبيرُ الذي تحمله الناقة أو الثور، لا يحمله الإنسان- **فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ، فَنَزَعَ حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ»**[1] قالوا: هذا إشارة إلى الخلافة، وقوله: **«وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ»** إشارة إلى ما حدث في وقته من الرِّدَّة وتفرُّق الناس.

وقوله: **«وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ»** إشارة إلى أن الله سينصره، وأنه يكون على الحق، وأنه يَثْبُت على ذلك؛ ولهذا يُضرَب به المثل فيقال: ما ثبت أحدٌ ثبات أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وقت الرِّدَّة.

فقد صار ثبوتُه كثبوت الجبال، وصار الصحابة يجادلونه، فقال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كيف تقاتل الناس وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ»**، فَقَالَ: وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ،

---

(١) سبق تخريجه.

فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ، فَقَالَ عُمَرُ: «فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ»[1].

ثم رجع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رأيه وإلى قوله، وهكذا في زمنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لم يختلفوا في شيء إلا فصَّله، ثم يرجعون إليه؛ لأنه كان أعلمهم بالله جَلَّ وَعَلَا، وأعلمهم برسوله ﷺ. ولما رجع ﷺ من حجة الوداع -كما في الغدير الذي يَكذِبُ فيه الرافضة على الناس يقولون: إنه أوصى إلى علي- خطب خطبة أوصى بكتاب الله ثم قال: «**إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ**». فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا. فَعَجِبْنَا لَهُ، وَقَالَ النَّاسُ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الشَّيْخِ، يُخْبِرُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ عَبْدٍ خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا. فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ المُخَيَّرَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَ الصحابة برسول الله ﷺ[2].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٥/ ٥٧) برقم (٣٩٠٤)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٤/ ١٨٥٤) برقم (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والشواهد كثيرة على كون أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الخليفةَ، وكونه أعلمَ الصحابة وأفضلهم، ولا يختلف في هذا أحد من أهل السُّنَّة، وإنما الخلاف عند أهل البدع، ولا عبرة بخلاف أهل البدع.

قوله: «وبقي منهم في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فأوجب لهم بطاعتهم إيّاهم الأجرَ...».

أي: من بقي فهم داخلون في قوله في الآية السابقة: ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾. وهذا دليل على أن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خلافة نبوة؛ لأن الله أمر أن يُتَّبَعوا، وأن يكون القتال الذي دُعُوا فيه بالوحي الذي أنزله الله جَلَّ وَعَلَا.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ويرونَ الصَّلاة -الجمعة وغيرها- خلفَ كلِّ إمام مسلم، برًّا كان أو فاجرًا.

فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ فرض الجمعةَ وأمر بإتيانها فرضًا مطلقًا: مع علمه تعالى بأنَّ القائمين يكون منهم الفاجرُ والفاسقُ، فلم يستثنِ وقتًا دون وقتٍ، ولا أمرًا بالنِّداء في جمعة دون أمرٍ».

الشرح:

بشرط أن يكون الإمام مسلمًا، برًّا كان هذا المسلمُ أو فاجرًا.

ومعلوم أن من يصلي مسلم، ومن لا يصلي غير مسلم. ولما حثَّ الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على طاعة الإمام وعدم الخروج عليه قال: «**إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ، فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: «**لَا، مَا صَلَّوْا**»[1]. أي: لا يجوز قتالهم ما داموا يصلون. وأخبر أنه تجب طاعتهم ولو كانوا يأخذون المال ويضربون الظهور ولا يؤدون الحق؛ لأن الخروج عليهم فيه مفسدة عظيمة، من إزهاق الأنفس والأموال والأعراض والفِتَن، فيجب أن تُدرَأ الفتن بالشيء الذي يُتَحمَّل، ويجب أن

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»، في كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع، وترك قتالهم ما صلوا، ونحو ذلك (٣/ ١٤٨١) برقم (١٨٥٤) من حديث أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

يصبر المسلمون على الجوَر وعلى الظلم ويدعوا ربهم أن يهديَ من كان مُوَلَّى عليهم، فيعطف عليهم حتى تستقيم الأمور؛ لأن المصائب لا تقع إلا بالذنوب، والذنوب تحتاج إلى توبة.

قوله: «فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ فرض الجمعةَ وأمر بإتيانها فرضًا مطلقًا؛ مع علمه تعالى بأنَّ القائمين يكون منهم الفاجرُ والفاسقُ، فلم يستثنِ وقتًا دون وقتٍ، ولا أمرًا بالنِّداء في جمعة دون أمرٍ».

أي: فرض عليهم الجمعة فرضاً غيرَ مُقَيَّد بإمام ولا غيره.

وقد فهم الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ذلك؛ ولهذا كانوا يصلون خلف الحَجَّاج، وعُقبة بن أبي مُعَيط الذي كان يشرب الخمر، والمختار بن عبيد الذي ادَّعى النبوة بعد ذلك وكان يقتل الناس.

وقد صلى ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا خلف الحَجَّاج مع ظلمه وسفكه الدماء، حتى أنه كان يقول في خُطَبه: إني أرى لو قتلتُكم وأخذتُ أموالكم لكان هذا سائغًا لي.

قوله: «فلم يستثنِ وقتًا دون وقتٍ، ولا أمرًا بالنِّداء في جمعة دون أمرٍ».

أي: أنه مطلق قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ويرون جهادَ الكفار معهم وإن كانوا جَوَرَةً.

ويرون الدُّعاء لهم بالإصلاح والعَطْفِ إلى العَدْلِ.

ولا يرون الخُروجَ بالسَّيف عليهم، ولا القتالَ في الفتنة.

ويرون قتالَ الفئة الباغية مع الإمام العَدْلِ، إذا كان ووجد على شرطهم في ذلك».

الشرح:

أي: أنه يجب جهادُ الكفار مع الأئمة والأمراء وإن كانوا ظالمين أو جائرين، ولا يجوز القعود عنهم في ذلك؛ إذ يجب طاعتهم في طاعة الله، ولكن إذا أمروا بالمعاصي فلا يجوز أن يُطاعوا.

وقوله: **«ويرون جهادَ الكفار معهم وإن كانوا جَوَرَةً».**

هذا غير مقيَّد في أي وقت، فإذا جاهدوا يجب أن يجاهَد معهم، وقد جاء في ذكر التوبة أنها تكون مقبولة ما لم تطلع الشمس من مغربها؛ لقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَلا تَزَالُ التَّوْبَةُ مَقْبُولَةً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنَ المَغْرِبِ»**[1].

ولقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»**[2].

معناه أن الجهاد سيستمر، وإن كان فيه فترات قد يتوقف فيها الجهاد فلا يعني أنه سينقطع مطلقاً. وكذا دل على ذلك حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٢٠٦) برقم (١٦٧١).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة (٤/ ٢١١٣) برقم (٢٧٥٩).

كما في «صحيح مسلم» قال: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»**(١).

قوله: «ويرون الدُّعاء لهم بالإصلاح والعَطْفِ إلى العَدْلِ».

أي: بالإصلاح والحق والعدل، الدعاء لهم بأن يصلحوا ويكون فيهم الخير لمن يقودونه، ومن يكون قائدين لهم بكتاب الله، ويقاتلون بهم أعداء الله.

وإذا كانوا يرون الدعاء لهم فهذا يعني: أنه لا يجوز الدعاء عليهم.

قوله: «ولا يرون الخُروجَ بالسّيف عليهم».

أي: يرون أن هذا أمر محرَّم، وقد كثرت الأحاديث في هذا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالواجب أن يكون هذا معلومًا عند كل أحد. أي: أن الخروج يتضمن قَتْلَ المسلمين، وقَتْلُ المسلم عظيم جدًّا عند الله جَلَّ وَعَلَا، حتى جاء في الحديث: **«لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ»**(٢).

ويقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا رَجُلٌ يَمُوتُ مُشْرِكًا أَوْ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا»**(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٣٧) برقم (١٥٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه في «سننه»، في كتاب الديات، باب التغليظ في قتل مسلم ظلمًا (٢/ ٨٧٤) برقم (٢٦١٩) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال البوصيري في «مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه» (٣/ ١٢٢): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٨/ ١١٢)، برقم (١٦٩٠٧)، وأبو داود (٤/ ١٠٣)، برقم (٤٢٧٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٣/ ٤١٦) برقم (٣٤٣٢)، والحاكم في =

فجاء القتل مقرونًا بالشرك؛ ولهذا لا يجوز الخروج على الإمام.

قوله: «ولا القتالَ في الفتنة».

الفتنة هي القتال بين المسلمين، فإذا وقع شيء من ذلك يجب أن يُعتزَل، ولا يجوز أن يشارك فيه الإنسان، لا بلسانه ولا بيده ولا بالإعانة عليه، كما فعل الصحابة، فعندما وقعت هذه الفتنة اعتزل أكثرهم ذلك.

قوله: «ويرون قتالَ الفئة الباغية مع الإمام العَدْلِ، إذا كان ووجد على شرطهم في ذلك».

الشرط هو الذي شرطه الله جَلَّوَعَلَا لما هو المذكور في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾ [الحجرات: ٩]، وهذه الفئة التي تقاتَل لا يجوز أن تقاتِلَها فئة أخرى؛ بل لابد من إمام يحمل راية قتالها، وإذا خرج خارجٌ على الإمام يجب أن يقاتَل ذلك الخارج لقول الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ»[1].



= «المستدرك» (٤/ ٣٩١) برقم (٨٠٣٢)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٣٩)، برقم (١٥٨٦١).

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»، في كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع (٣/ ١٤٨٠) برقم (١٨٥٢) من حديث عرفجة بن شريح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «**ويرون الدَّارَ دارَ إسلام لا دارَ كُفْرٍ -كما رأته المعتزلة -ما دام النِّداءُ بالصَّلاة والإقامة بها ظاهرَيْنِ، وأهلها ممكَّنين منها آمنين**».

الشرح:

إذا كان يُرفَع فيها النداء، ويظهر فيها أمور الإسلام الظاهرة، فهي دار إسلام، بخلاف المعتزلة الذين يرون أنها إذا ظهر فيها المنكر فهي ليست دار إسلام؛ ولهذا قال: «**ما دام النِّداءُ بالصَّلاة والإقامة بها ظاهرَيْنِ، وأهلها ممكَّنين منها آمنين**» -أي: الصلاة- ومن السعي إلى الله، فهي دار إسلام.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ويرون أنَّ أحداً لا تخلصُ له الجنة وإن عملَ أيَّ عمل، إلا بفضل الله ورحمته التي يخصُّ بهما من يشاء؛ فإنَّ عمله للخير وتناوله الطاعاتِ إنَّما كان عن فضل الله الذي لو لم يتفضَّل به عليه لم يكن لأحدٍ على الله حجةٌ ولا عَتْبٌ، كما قال الله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١]، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: ٨٣]، وقال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [آل عمران: ٧٤]».

الشرح:

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ**». قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**»(١).

أي: أن الجنة فضل من الله، ولكن العمل سبب لدخول الجنة، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب ذلك، وهذا رد على المعتزلة الذين يقولون: أن هذه الباء هي باء العِوَض، أي: أن الجنة عِوض عن العمل، ولهذا أوجبوا ذلك على الله جَلَّ وَعَلَا؛ لهذا نص على ذلك لبيان ذلك.



---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت (٧/ ١٢١) برقم (٥٦٧٣)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٤/ ٢١٦٩) برقم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ويقولون: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أجَّل لكلِّ حيٍّ مخلوق أجلاً هو بالغه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤]. وإن مات أو قُتل فهو عند انتهاء أجله المسمَّى له؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]».

الشرح:

قوله: «ويقولون: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أجَّل لكلِّ حيٍّ مخلوق أجلًا هو بالغه».

كل شيء عنده جَلَّوَعَلَا بأجل، وهذا مكتوب قبل وجود الخلق.

في «الصحيحين» من حديث عبدالله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعتُ الصادق المصدوق صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «أَنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، -نُطْفَة- ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ»[1].

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم -صلوات الله عليه- وذريته (٤/ ١٣٣) برقم (٣٣٣٢) وبرقم (٣٢٠٨) وبرقم (٣٣٣٣)، ومسلم=

أي: أن الرزق والأجل مكتوب وهو في بطن أمه، بل هي كتابة بعد كتابة؛ فهي كتابة خاصة للمخلوق في البطن، سبقتها الكتابة القديمة الأزلية.

والعلماء يجعلون الكتابات متعددة في هذا؛ فكتابة قديمة عامة وهي التي كُتبت في اللوح المحفوظ والتي جاء فيها «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَم، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ**»[(١)]. فهذه كتابة قديمة، وقد جاء في «صحيح مسلم»: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**»[(٢)].

وقد جاء أيضًا أن الله جَلَّ وَعَلَا استخرج من آدم ذريته وقسمها إلى قسمين[(٣)].

وكتابة سنوية، وهي المذكورة في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]، أي: في ليلة القَدْر.

= في «صحيحه»، في كتاب القَدَر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٤/ ٢٠٣٦) برقم (٢٦٤٣).

(١) أخرجه أبو داود في «سننه»، في كتاب السنة، باب في القدر (٤/ ٢٢٥) برقم (٤٧٠٠)، والترمذي في «سننه»، في كتاب القدر، باب ما جاء في الرضا بالقضاء (٤/ ٤٥٧) برقم (٢١٥٥) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه»، في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ (٤/ ٢٠٤٤) برقم (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٥/ ٤٨١) برقم (٢٧٤٨٨)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٣/ ٢٦١) برقم (٢٢١٣) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وكتابة يومية، وقد أشار الله جَلَّوَعَلَا إليها جميعًا بقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، أي: يُعِزُّ قومًا ويُذِل آخرين، ويُحيي ويميت، ويدبّر في ملكه كما يشاء تعالى الله وتقدس.

وأثر ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في هذا معروف.

فالكتابة التي كتبها الله جميعًا تتَّفِق كلها؛ لأن الله عَلِمَ الأشياء قبل وجودها، وكَتَب عِلْمَه في ذلك، ثم شاء أن تقع على حسب مشيئته؛ فهو خالقها.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]».

هذا عامٌّ في أن كل نفس لها أجل مُعَيَّن، ولكن تختلف الأسباب؛ فقد يكون هذا بسبب حادث، وهذا بسبب مرض، وهذا بسبب أمور تحدث كما أرادها الله جَلَّوَعَلَا؛ وهي الآجال التي أجَّلها الله جَلَّوَعَلَا.

قوله: «**وإن مات أو قُتل فهو عند انتهاء أجله المسمَّى له**».

هذا ردٌّ على المعتزلة الذين يقولون: إن الإنسان إذا قُتِل فقد قطع عليه القاتل أجَلَه ورِزقه، وأن القاتِلَ لو تركه لعاش!

وهذا ضلال بيِّن، وهو خلاف ما ذكره الله جَلَّوَعَلَا؛ لذا نصَّ على هذا كما نص عليه غيره.

قوله: «**كما قال الله عَزَّوَجَلَّ**: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

نزلت هذه الآية في قصة أُحد كما هو معروف، يقول جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقد فسر العلماء هذا الظن - الذي هو ظن الجاهلية - بشيئين:

الأمر الأول: أن هذه أمور غير مُقَدَّرة، وأنها وقعت بهذا السبب فقط، أي: أنها يمكن أن تتغير؛ ولهذا قال: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا﴾، أي: إخوانُهم الذين قُتِلوا.

الأمر الثاني: ظنَّهم أن الله جَلَّوَعَلَا لا ينصر رسوله، وأن هذه القضية أنهت الأمر.

وكل هذا من الظن السيئ، وهو مِن ظنِّ الجاهلية؛ ولهذا قال: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ﴾، أي: لو جلسوا في بيوتهم لقيَّض الله لهم ما يُخرجهم منها إلى الأماكن التي يُقتَلون فيها، فيُقتَلون فيها؛ فما قدَّره جَلَّوَعَلَا لا يتغير.

ومعنى ذلك: أن المقدَّرات لا يمكن تغييرها، فكل مُقدَّر يقع على حسَب تقديره.

أما ما نراه الآن من قول بعض الناس إذا وقعوا في شيء من الأمور

المقطوع بها، قالوا: لو فعلنا كذا ما صار كذا، فهذا غير جائز؛ لأن «لو» هذه تقتضي أنه يمكن تغيير هذا الأمر الذي وقع، وهذا أمر لا يجوز اعتقاده؛ فالشيء الذي وقع قد قدَّره الله ولا يمكن تغييره، وإنما الواجب أن نقول كما علَّمَنا الرسول ﷺ: **«قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ»**(1). فهذا قَدَرُ الله.



(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»، في كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله (٤/ ٢٠٥٢) برقم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ]: «وإنَّ الله تعالى يرزق كلَّ حيٍّ مخلوقٍ رزقَ الغذاءِ الذي به قِوامُ الحياة، وهو ما يضمنُه الله لِمَن أبقاه من خَلْقِهِ، وهو الذي رزقه من حلالٍ أو من حرامٍ، وكذلك رزق الزينة والفاضل عمَّا يحيا به».

الشرح:

حَصر الرزق بهذا ليس له وجه.

ينقسم الرزق إلى قسمين:

القسم الأول: رِزقُ الغذاء، وهو ما يتقوت به.

القسم الثاني: رِزقُ الإيمان والتقى والعمل الصالح، وهو أفضل وأعظم.

والرزق كله من الله جَلَّ وَعَلَا، كما قال الله: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ [هود: ٦].

قوله: «وهو ما يضمنُه الله لِمَن أبقاه من خَلْقِهِ».

أي: أن الرزق كُتب قبل وجود المخلوق الذي يُرزَق، فالله هو الرزَّاق.

والرزق قد يكون حلالًا وقد يكون حرامًا، وذلك حسَب الأسباب التي يفعلها الإنسان، والله جَلَّ وَعَلَا لا يأذن بالرزق الحرام؛ لأنه بيَّنه ومنع منه.

والرزق الحلال كثير جدًّا، أما الحرام فهو قليل محصور، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمًا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾

ثم قال: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥﴾ [الأنعام: ١٤٥]، أي: أن الإنسان إذا اضطُرَّ إلى أكل هذه المحرمات فإن الله يغفر له، وهذا من رحمته وإحسانه. وما عدا ذلك فهو حلال، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٢٩]، كل ما في الأرض مخلوق لنا، وهذا يدل على الإباحة، فالمحرَّمات يجب أن تُجْتَنَب، ولكن إذا وقع فيها الإنسان وأكل منها فهي رزق مُقَدَّر له وهو يؤاخذ على ذلك.

قوله: «وكذلك رزق الزينة والفاضل عمًّا يحيا به».

أي: ما يقتاته، فكل ما يحصل للإنسان مما ينتفع به هو رِزق من الله جَلَّوَعَلَا، سواء كان مأكولًا، أو ملبوسًا، أو مسكنًا، أو مركوبًا، أو غير ذلك.

المقصود أن كل خير ونفع يحصل للعبد فهو من الله، بل كل تصرُّف وحركة وسكون بمشيئة الله وإذنه.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: **«ويؤمنون بأنَّ الله تعالى خلق الشياطين تُوسوس للآدميين، ويختَدِعُونهم ويغرُّونهم، وأنَّ الشيطان يتخبَّط الإنسان»**.

الشرح:

الشياطين يكونون من الإنس والجن، فالإنس فيهم شياطين، والجن فيهم شياطين، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، إلى آخر الآيات.

وقوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣].

ولحديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: أتيت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في المسجد فجلستُ، فقال: وفيه: **«يَا أَبَا ذَرٍّ، تَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ»** قال: قلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال **«نعم»**[(١)].

والشيطان مأخوذ من الشَّطن وهو البعد، ويقول بعض العلماء: إنه أخذ من شاط يشوط إذا ارتفع.

وهو مأخوذ من الَّلهَب؛ لأن الشياطين خلقت من النار.

والشياطين من الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض، ويُزخِرفون

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٥/ ٤٣١) برقم (٢١٥٤٦)، والنسائي في «سننه»، في كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من شر شياطين الإنس (٨/ ٢٧٥) برقم (٥٥٠٧).

ويُزيّنون، وقد خُلِقُوا فتنة؛ ولهذا أخبر جَلَّوَعَلَا أنهم يروننا من حيث لا نراهم، وحذَّرنا منهم. ولكنهم يوسوسون وسوسةً فقط، وإذا احترز الإنسان منهم بذكر الله فلا يكون لهم تأثير عليه؛ ولهذا يطردهم ذِكرُ اللهِ والقرآن.



[قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ]: «وأنَّ في الدنيا سحراً وسحرةً، وأن السِّحر استعماله كفرٌ من فاعله، معتقدًا له نافعًا ضارًّا بغير إذن الله».

الشرح:

السحر لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله.

ومقصود المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: أن اعتقاد أن له نفعًا أو ضرًّا بغير إذن الله كُفْرٌ.

والسِّحر لا يضر إلا بإذن الله ولا ينفع مطلقًا؛ فالسحر ضار قد يجعل الإنسان يمرض، وقد يُفرِّق بين المرء وزوجه، وكل ذلك بإذن الله جَلَّ وَعَلَا.

وهذا رد على الذين يقولون: إن السحر لا حقيقة له، وإنه أمر تخيُّلي.

وقد ثبت الكثير جدًّا من الأشياء الواقعة بين الناس بالسِّحر، وهو من المعاصي الكبيرة، والغالب أنه لا يحصل إلا بطاعة الشيطان، والشيطان لا يرضى إلا بالشرك، والسحر الحقيقي يكون بواسطة الشياطين، ولا يكون إلا إذا فعل الإنسان جُرمًا عظيمًا قد يخرجه من الدين الإسلامي كما هو معروف في مجال السحرة، وقد ثبت أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُحِر حتى صار يُخيَّل إليه أنه يفعل الشيء ولم يفعله[١].

يقول العلماء: هذا هو أعظم أنواع السحر.



(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٤/ ١٢٢) برقم (٣٢٦٨)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب السلام، باب السحر (٤/ ١٧١٩) برقم (٢١٨٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ويرونَ مجانبةَ البدعةِ والآثام، والفَخْرِ، والتكبُّرِ، والعُجْبِ، والخيانةِ، والدَّغَلِ، والاغتيالِ، والسِّعايةِ.

ويرونَ كفَّ الأذى، وتركَ الغِيبة؛ إلَّا لَمن أظهر بدعة وهوى يدعُو إليهما، فالقولُ فيه ليس بغيبةٍ عندهم».

الشرح:

أي: أن البدع ضلال، فيجب أن يُبتعَدَ عنها وعن أهلها.

والآثام عطف على البدعة، أي: المعاصي.

قوله: «والفَخْرِ، والتكبُّرِ، والعُجْبِ، والخيانةِ، والدَّغَلِ، والاغتيالِ، والسِّعايةِ».

كل هذا من المعاصي.

ومعنى «السِّعاية»: أن يسعى الإنسان برجُلٍ إلى من يعاقبه من إمام أو غيره، وهذا لا يجوز.

ويروى أن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: أشرُّ الناس المثَلِّثُ. قالوا: وما المثَلِّث؟ قال: الذي يورِّط نفسه، ويورِّط أخاه، ويورِّط الإمام.

أي: أنه يسعى إلى الإمام بالسعاية فيُؤخَذ غيره بذلك.

والمقصود مجانبة الآثام التي تكون بالجوارح، وكذلك بالقلوب.

قوله: «ويرونَ كفَّ الأذى، وتركَ الغِيبة؛ إلَّا لَمن أظهر بدعة وهوى يدعُو إليهما، فالقولُ فيه ليس بغيبةٍ عندهم».

الغِيبة: هي ذِكْرُ الرَّجل بما يكره في غيبته، كما عرَّفها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: «**إلاَّ لمَن أظهر بدعة وهوى يدعُو إليهما، فالقولُ فيه ليس بغيبةٍ عندهم**».

يجب أن يكون هذا من باب النصح، أي: أنه يَذكُرُه حتى يُجتَنَبَ.

أما إذا كان مظهرًا للبدعة داعيًا إليها فالكلام فيه من جهة بدعته ليس غِيبة.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ويرونَ تعلُّمَ العلم وطلبَه من مَظانِّه.

والجدَّ فِي تعلُّم القرآن، وعلومِه، وتفسيره، وسماعَ سُنن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجمعها، والتفقُّهَ فيها.

وطلبَ آثار أصحابه، والكفَّ عن الوقيعة فيهم، وتأوُّل القبيح عليهم، ويكِلُونهم فيما جَرى بينهم على التأويل إلى الله عَزَّوَجَلَّ، مع لزوم الجماعة».

الشرح:

هذا من الأمور الواجبة، وقد يكون فَرْضَ عينٍ، مثل الشيء الذي تصح به الصلاة، ويؤدَّى به الواجبُ، ويُجتَنَب به المحَرَّمُ، وقد يكون مستحبًّا؛ فطلب العلم هو أفضل الأعمال بعد أداء الفرائض.

لكن يجب أن يسلك المسلك الصحيح في طلب العلم، فيكون على العلماء المتحققين به، ويجب أن يكون العَالِم تقيًّا وعاملًا بعلمه؛ لأن المتعلم يكتسب أخلاقه من المعلِّم.

قوله: «والجدَّ فِي تعلُّم القرآن، وعلومِه، وتفسيره، وسماعَ سُنن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجمعها، والتفقُّهَ فيها».

القرآن هو الأصل في هذا، ولكن كان السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ مَنْ تعلَّم القرآن منهم تعلَّم العلوم؛ لأن القرآن اشتمل على جملة من العلوم.

ويُروى أنه قيل لأحد العلماء: قد وُجد من يقرأ القرآن ولا يفهم معناه.

فقال: هذه بدعة؛ لأنها لم تكن موجودة، وإنما حدثت لما اختلط العرب بغيرهم، فضَعُفت اللغة، وفسدت الألسنة.

قوله: «وعلومِه، وتفسيره، وسماعَ سُنن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجمعها، والتفقُّهَ فيها».

علم التفسير، وعلم القراءات، وسماع السنن، والفرائض، والفقه، وغير ذلك من العلوم النافعة؛ فإنه يجب الاجتهاد فيها وإخلاص النية، وأن يقصد الإنسان بذلك معرفةَ ربه وأداء عبادته صحيحةً، ثم الدعوة إلى الله جَلَّ وَعَلَا بذلك.

قوله: «وطلبَ آثار أصحابه، والكفَّ عن الوقيعة فيهم، وتأوُّل القبيح عليهم، ويكلُونهم فيما جَرى بينهم على التأويل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، مع لزوم الجماعة».

أي: في طلب العلم وأهل العلم؛ فالواجب أن يُكَفَّ عن كل أحد من المسلمين.

قوله: «وتأوُّل القبيح عليهم».

أي: أنه إذا ذُكر شيء قبيح، يجب حملُه على أحسن المحامل، ويُوكِلون فيما جرى بينهم على التأويل؛ أي: أنه إذا جرى خلاف أو كلام بالتأويل يجب حمله أيضًا على أحسن المحامل.



[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «والتّعفُّف في المأكل والمشرب والملبَس.

والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والإعراض عن الجاهلين، حتى يُعلِّموهم ويُبيِّنوا لهم الحقَّ، ثم الإنكار والعقوبة من بعد البيان وإقامة العُذْرِ بينهم وبينهم».

الشرح:

أي: لا يجوز التطرف والتعسف في المأكل والمشرب والملبس، بل يكون في ذلك وسَطًا.

قوله: «والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والإعراض عن الجاهلين، حتى يُعلِّموهم ويُبيِّنوا لهم الحقَّ، ثم الإنكار والعقوبة من بعد البيان وإقامة العُذْرِ بينهم وبينهم».

قوله: «والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر...»؛ لأن هذا هو ما يقوم به الإسلام كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقد جعله بعض العلماء أصلًا من أصول الإسلام؛ فقال: أصول الإسلام ستة، والسادس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قوله: «والإعراض عن الجاهلين».

أي: أنه إذا جاء جاهل يجادل أو يعترض فليُعرض عنه، فلا خير في مجاراة الجُهَّال، ولا يؤدي ذلك إلا إلى الفساد.

قوله: «حتى يُعلِّموهم ويُبيِّنوا لهم الحقَّ، ثم الإنكار والعقوبة من بعد البيان وإقامة العُذْرِ بينهم وبينهم» حسب ما يكون سائغًا في الشرع، «بعد البيان وإقامة العُذْرِ بينهم».

وهذه العقوبة لا تكون إلا للإمام، وهذا ما قاله الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»[1].



(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»، في كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان (١/ ٦٩) برقم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «هذا أصلُ الدِّين والمذهب، واعتقادُ أئمَّة أهل الحديث، الذين لم تَشُنْهُم بدعةٌ، ولم تلبسهم فتنةٌ، ولم يخفُّوا إلى مكروه في دينٍ.

فتمسَّكوا مُعتصمين بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا عنه.

واعلموا: أنَّ الله تعالى أوجبَ محبَّته ومغفرته لمتَّبعي رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كتابه، وجعلهم الفرقة الناجية، والجماعة المتَّبعة، فقال عَزَّوَجَلَّ لمَن ادَّعى أنَّه يُحبُّ اللهَ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

نفعنا الله وإيَّاكم بالعلم، وعصمنا بالتقوى من الزيغ والضَّلالة بمنِّه ورحمته».

الشرح:

أي: أنه يجب أن يُتَّبَعُوا في هذا الأمر إذا كانوا على هذا المسلك.

قوله: «فتمسَّكوا مُعتصمين بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا عنه...إلخ».

يوصي ويأمر بذلك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، نسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يجعَلَنا منهم.

وصلَّى الله وسلَّم وبارَك على عبدِه ورسولِه نبيِّنا محمَّدٍ.



فهرس الموضوعات

